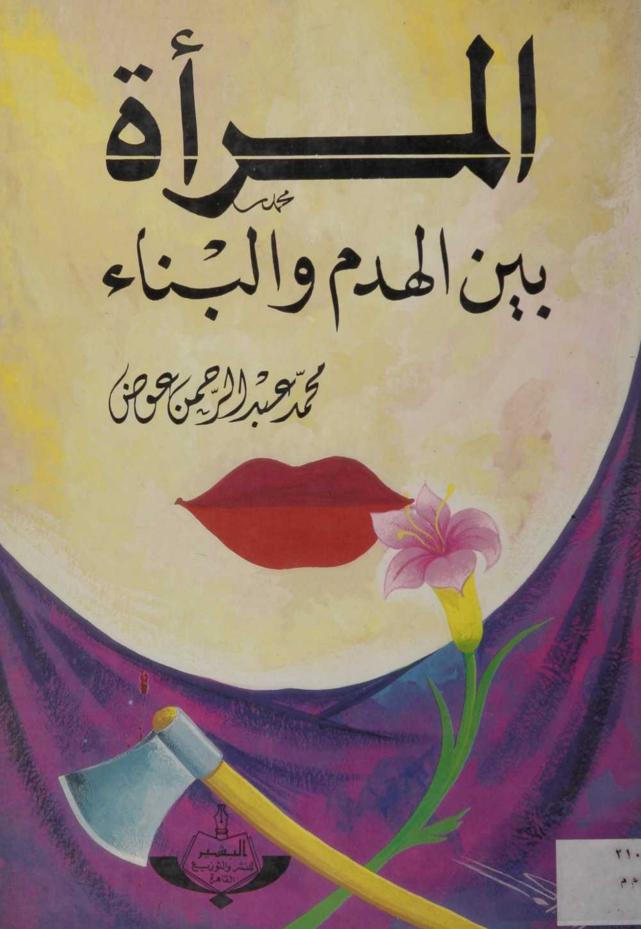

المرأة
بين الهدم والبناء
محمد عبد الرحمن عوض
البشير
للنشر والتوزيع
القاهرة

المرأة
بين الهدم والبناء

دار البشير ـ القاهـرة
للطباعة والنشر والتوزيع

١٤٥طريق المعادى الزراعى ص . ب ١٦٩ المعادى . ت : ٣١٨٧٣٦٨

محمد عبد الرحمن عوض

المرأة

بين الهدم والبناء

دار البشير
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾.

(الآية ٤١ من سورة إبراهيم)

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

(الآية ٢٨ من سورة نوح)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خلق الزوجين الذكر والأنثى ، وحدَّد لكل منهما دوره فقال :

﴿ إنَّ سَعْيَكُم لَشَتَّى ﴾ (الليل : ٤)

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صلَّيت وسلمت وباركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد .

وبعد ..

فإننا نعيش الآن مرحلة صعبة من مراحل الحياة ، مرحلة قاسية اختلطت فيها الأمور وتداخلت ، حتى أصبح بعض الكتَّاب والمفكِّرين فى حيرة من أمرهم ، لا يدرون لمَا يستجدُّ تفسيراً ، ولا يدرون لاختلال الموازين سبباً . فإذا سيطرت على المجتمع ظاهرة انحراف الشباب مثلاً تخبَّط الكثيرون فى تفسيرها وذهبوا كلَّ مذهبٍ فى أسبابها ، فهذا يحيل المشكلة إلى تهاون الأسرة ، وآخر يرجعها إلى المدرسة ، وثالث .. ورابع . فإذا كانت المشكلة مرتبطة بالمرأة وظهور الميول الإجرامية عندها ومدى انحرافها عن أنوثتها تقوَّل المتقوِّلون وزعموا أسباباً لا تمتُّ للظاهرة بسبب .

وينسى الكثيرون أن مثل هذه الظواهر نتيجة لما نجتهد فيه من إبعاد الدين عن حياتنا ، وتغريب القيم الدينية عن واقعنا .

والاتجاه الذى يسعى لفصل الدين عن الدولة يفشل فى تفسير مواطن الخلل فى العلاقة الاجتماعية بين أفراده ، وبالتالى يعجز عن وضع الحلِّ لهذا الخلل .

وعندما نفسِّر انحراف الشباب وتحلُّل الأسرة وتغلُّب المادية فإننا لا نصيب الحقيقة إذا غاب عنا جانب الالتزام بالإسلام وحقائقه .

ولقد زمَّر الزامرون وطبَّلوا لخروج المرأة ، وهلَّلوا لكل مَنْ داست من المسلمات على قيمة من قيم الإسلام ، وكان ما رأيناه من فساد الطبع وانحراف السلوك .

وكل ذلك تمَّ بحجة التطوُّر والمدنيَّة والحضارة . ولم يتحقق لنا من الحضارة إلا حضارة الديون والتضخُّم ، ومدنيَّة البطالة والجريمة وانتشار المخدِّرات ، وحرية الاختلاسات .

وكان للمرأة الدور الأكبر فى هذا التفسُّخ الحضارى الذى نعيشه اليوم ، والمركز المتدهور الذى تتأخر إليه أمتنا يوماً بعد يوم .

وسنرى فى ثنايا هذا البحث الموجز أن لا مجال للموازنة بيننا وبين الغرب فى مسألة خروج المرأة . إذ أن خروج المرأة فى الغرب كان متأخِّراً عن تقدُّمها الحضارى ، أما خروج المرأة عندنا فهو متقدِّم على ما نسمِّيه التقدُّم الحضارى أو محاولة اللحاق بالموكب العلمى الحديث . ومن هنا كان البناء هناك والانهيار هنا .

إننى أقدِّم هذه الرسالة إلى كل رجل وكل امرأة ، لعل فيها التنبيه والإرشاد إلى الطريق الصواب .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ..

المؤلف

محمد عبد الرحمن عوض

سورة مفروضة

بُنى الإسلام على خمس .. هذا مطلع حديث شريف تحدَّث عن الأركان الخمسة التى لا يتم الإسلام إلا بتمامها فى المسلم .

ولكن المتفحِّص لكتاب الله يجد سورة تكاد أن تكون الركن السادس من أركان الإسلام ، تلكم هى سورة النور ، إذ تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **سُورَةٌ أَنْزَلْنَاها وفَرضْنَاها وَأَنْزَلْنَا فيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعلَّكُم تَذكَّرُونَ** ﴾ (النور : ١)

ولقد تحدَّثت أول آية فى السورة – كما ترى – عن مضمون السورة كلها ، فمضمونها ومحتواها « آيات بينات » وهذه الآيات هى الأحكام الأخلاقية والعقائدية التى ينبغى أن تسود المجتمع المسلم . وقد أعطت نفس الآية ضمانات تنفيذ تلك الأحكام البينات ، وهذه الضمانات أُجملت فى اثنتين :

الأولى : أن السورة منزَّلة من عند الله سبحانه وتعالى ، ولها اعتبارها وقدسيتها ، ولكن التصريح بقوله تعالى : ﴿ **أَنْزَلْنَاهَا** ﴾ وهى من جملة القرآن المنزَّل يدل على أن لها خصوصية تستوجب الانتباه .

الثانية : أنها مفروضة ولذلك فهى تتفق مع بقية الفرائض فى وجوب تنفيذ أحكامها ، فهى سورة لها من دلالات بدايتها طابعها المميَّز الذى يستوجب التوقُّف أمام معانيها الأخلاقية والاجتماعية .

وهذه السورة هى الوحيدة التى بُدئت بالحديث عن إنزالها وفرضيَّتها . وعندما نتفحَّص الآيات القرآنية نجد أن بعض الفرائض التعبُّدية لم يتحدث عنها القرآن بلفظ الفرضية وإنما بألفاظ أخرى ، فتحدث عن الصلاة بأنها كتاب موقوت ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً .. ﴾
(النساء : ١٠٣)

وقال سبحانه : ﴿ وأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (البقرة : ٤٣)

وقد قال الله تعالى عن القرآن : ﴿ إِنَّ الَّذى فَرضَ عَلَيْكَ القُرآنَ لَرَادُّكَ إِلى مَعَادٍ ﴾ (القصص : ٨٥)

فالقرآن فرض عام ، ثم من خلال هذا الفرض العام تأتى سورة النور لتبدأ بقوله تعالى : ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وفَرَضْنَاها ... ﴾ .

فرضناها : قُرِىء بتشديد الراء ، أى قطَّعناها فى الإنزال نجماً نجماً ، وقُرِىء بتخفيف الراء : والمعنى أوجبناها وجعلناها مقطوعاً بها . وقيل : ألزمناكم العمل بها ، وقيل : قدَّرنا ما فيها من الحدود ، والفرض التقدير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذى فَرضَ عَلَيْكَ القُرآنَ ﴾ .

﴿ وأَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بيِّناتٍ ﴾ أى أنزلنا فى غضونها وتضاعيفها ، ومعنى كونها بينات أنها واضحة الدلالة على مدلولها . وتكرار (أنزلنا) لكمال العناية بإنزال هذه السورة لمَا اشتملت عليه من الأحكام .

﴿ الزَّانيةُ والزَّانى ﴾ والزانية هى المرأة المطاوعة للزنا الممكنة منه ، كما تنبىء عنه الصيغة ، لا المكرَهة ، وكذلك الزانى[1] . ووجه تقديم الزانية على الزانى ها هنا أن الزنا فى ذلك الزمان كان فى النساء أكثر ، حتى كان لهن رايات تُنصب على أبوابهن ليعرفهن من أراد الفاحشة بهن[2] . وقيل : وجه التقديم أن المرأة هى الأصل فى الفعل . وقيل : لأن الشهوة فيها أكثر وعليها أغلب . وقيل : لأن العار فيهن أكثر إذ موضوعهن الحجبة والصيانة ، فقدَّم ذكر الزانية تغليظاً واهتماماً .

---

(١) فتح القدير للشوكانى ، جـ ٤ ، ص ٤ وما بعدها .

(٢) ويشبهه ما يُسمى المواخير والنوادى الليلية وقرى الأحلام ، وهو أبشع من فعل الجاهلية .

والخطاب فى هذه الآية للأئمة ومَنْ قام مقامهم . وقيل : للمسلمين أجمعين ، لأن إقامة الحدود واجبة عليهم جميعاً والإمام ينوب عنهم إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود[1] .

وتأتى أحكام سورة النور لتتعرض لموضوع عام واحد ، ألا وهو موضوع « الفتنة » تحذِّر منه وتشرح جوانبه . وللفتنة خطورتها : إنها تهدد المرء فى دينه وعقيدته وأهله وكل حياته . والفتنة أشد من القتل . ولخطورة الموضوع استلزم تنفيذه ضمانات أكبر ، فأُضيفت الضمانتان تأكيداً للقرائن الملازمة ، فإن لم تكن هناك قرائن صريحة كانت الضمانتان إلزاماً للمؤمنين .. وصدق الله العظيم :

﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاها وفَرَضْناهَا وأَنْزَلْنَا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُم تَذكَّرُونَ ﴾[2]

وقد تناولت سورة النور جوانب اجتماعية عدَّة نشير إليها سريعاً ، ليتبيَّن لنا أهمية هذه الجوانب ممَّا اقتضى سبقها بالقرينتين المشار إليهما .

١ - **الجريمة** : تحدثت سورة النور عن « الزنا » وهذ الجريمة لها خطورتها البشعة على كل من المعتدِى والمعتدَى عليه ، ويمتد الأثر الفادح إلى المجتمع ، وهى فتنة للفرد أيًّا كان موقعه منها ، فإن كان جانياً فتنته بالاستزادة منها والتباهى باقترافها ، وإن كان ضحية فتنته عن دينه ، وأزالت الثقة من نفسه ، ودفعته إلى اليأس والانتقام بأى وسيلة يراها كفيلة بالتشفِّى ، فإن كان الفرد على هامشها وليس طرفاً فيها ، وإنما يسمع بحدوثها ، جرَّته الشهوة إلى الوقوع فيها ، ورسم لنفسه طريق الزنا مثلاً أعلى يحتذى به . وقد رسمت السورة طريق النجاة .

٢ - **الإفك** : وهو حديث الشكِّ الذى لا يقوم على أساس ، وهو فتنة لِمَنْ يخوض فيه : يصرفه عن تزكية نفسه بالعمل الصالح ، ويحيطه بروائح الجريمة . ولعله يجد فى نفسه حب إتيانها أو الدعوة إليها ، وهذه أُولى خطوات الشيطان ، كما أنه أداة للتفكك الاجتماعى والخُلقى والنفسىّ .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥ .

(٢) جاء التعقيب ليبيِّن أن الهدف من هذه السورة التذكرة والتوعية ، حتى لا تغمرهم الفتنة ويصل بهم الأمر إلى الضلال والانصراف عن الحق .

٣ – **الوقاية** : وحتى لا تتسع أبواب الشر وتتأصَّل رياح الفتنة فى المجتمع تحدَّثت السورة عن سبل الوقاية ، فتحدثت عن غضِّ البصر ، وحفظ الفرج . وطلبت التعفُّف ممَّن لا يجد نكاحاً ، ثم تناولت الآداب الاجتماعية بالحديث عن الاستئذان وما إلى ذلك .

* * *

جاء فى القرآن الكريم فى قصة موسى عليه السلام أنه حين فرَّ من مصر ﴿ **وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ** ﴾ وأنه ﴿ **وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قَالَ ما خَطْبُكُما قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إلى الظِّلِّ فَقَالَ ربِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجاءَتْه إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قَالتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا ...** ﴾ (القصص : ٢٣ – ٢٥)

وتستمر القصة مبيِّنة مطلب الفتاة من أبيها بأن يستأجره ﴿ **إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِىُّ الأَمِينُ** ﴾ (القصص : ٢٦)

ونستفيد من هذا ما يلى :

١ – أن خروج المرأتين كان لضرورة ملحَّة هى : تقدُّم أبيهما فى السنِّ وعدم وجود مَنْ يقوم بالعمل سواهما ، حتى إذا وجد الشيخ موسى واستأجره انتفت الضرورة .

٢ – وانتظار الفتاتين حتى ينصرف الرعاء ، وكذلك مجىء البنت لموسى على استحياء تدعوه ليأخذ أجر سقايته – يدل على وجود « الضمان » مصاحباً للضرورة ، ألا وهو الاحتشام والبعد عن مظانِّ الفتنة . وكلام موسى للمرأتين داخل فى الضرورة . ومثله قيام المرأة فى القتال على الجرحى ومهمة سقى الجنود ، وما إلى ذلك فى زمن رسول الله ﷺ .

وهذان الشرطان لازمان لخروج المرأة شرعاً ، لأن خروج المرأة ضد الفطرة ، قال تعالى فى سورة آل عمران :

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْها قالتْ ربِّ إنِّى وضَعْتُها أُنثَى واللهُ أعْلَمُ بِما وضَعَتْ ولَيْسَ الذَّكَرُ كالأُنْثَى وإنِّى سَمَّيْتُها مَرْيَمَ ﴾ (آل عمران : ٣٦)

وهو صريح فى عدم المساواة .

إن سدَّ هذا الباب بالكليَّة حرج عظيم فندب إلى ذلك من غير إيجاب وقال : « أُذِنَ لكنَّ أن تَخْرُجْنَ إلى حوائجكنَّ »[١] . فالخروج لحاجة وضرورة .

وفى بيان الضمان قال ﷺ : « أيما امرأة استعطرت فمرَّت على قومٍ ليجدوا ريحها فهى زانية » .

ومع ذلك فلم يدع الإسلام المرأة تتقاذفها أهواء الرجال بل سنَّ لها حقوقها كما وضَّح واجباتها ، فألزم المؤمن باحترام كرامتها فى أدق أسرار حياتها حيث أعلنت السنة : « لا تأتوا النساء فى أدبارهن ، ملعون مَنْ أتى امرأةً فى دبرها » وذلك حتى تحدَّ من بهيمية المتسلِّطين من الرجال وترتفع بقدر الضعيفات من النساء .

وإذا كان الإسلام قد حرَّم هذا الوضع القذر فإنه تقدَّم خطوات فى سبيل تحديد حق المرأة ، فقال عليه السلام : « لا يَفْرُكُ[٢] مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خُلُقاً رضى منها آخر » .

وقال : « أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً وخيارهم خيارهم لنسائهم » .

وقال : « لا يجلد أحدُكم امرأته جَلْدَ العبد ثم يجامعها فى آخر اليوم » .

وسأل رجل النبى ﷺ فقال : « يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تُقبِّح ، ولا تهجر إلا فى البيت » فالطعام والكساء ليسا تفضُّلاً يَجُودُ بهما الرجل متى شاء ، والهجر علاج ينبغى ألَّا يتحول لمرض .

---

(١) انظر : حجة الله البالغة ، للدهلوى .

(٢) يفرك : يبغض .

وبإجمال بليغ يوضّح رسول الله ﷺ واجبات المرأة الأساسية فيقول : « خير نساءٍ ركبن الإبل نساء قريش : أحناه على ولد فى صغره ، وأرعاه على زوج فى ذات يده » .

ويقول ﷺ : « ما تركتُ بعدى فى الناس فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء » .

ويقول : « هلكت الرجالُ حين أطاعت النساءَ » .

ومع ذلك فلوليِّ الأمر أن يتدخَّل ليمنع ظلماً يوشك أن يقع على المرأة ، قال ﷺ وهو على المنبر : « إن بنى هشام بن المغيرة استأذنوا فى أن يُنكحوا ابنتهم عليَّ بن أبى طالب ، فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن ، إلَّا أن يريد ابن أبى طالب أن يُطلِّق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإنما هى بضعة منى يُريبنى ما أرابها ويؤذينى ما آذاها » .

وهذا الحديث فى صالح من يرى تقييد التعدُّد ، ولكن أمَا ينبغى لِمَنْ يريد أن يأخذ بمثل هذا الحديث أن يأخذ بما سواه من قرآنٍ وسنَّة ؟

* * *

دستور المؤمنات

﴿ يَا أَيُّها النبيُّ إذَا جاءَكَ المُؤْمِناتُ يُبَايِعْنَكَ عَلى أن لَّا يُشْرِكْنَ بالله شَيْئاً ولَا يَسْرِقْنَ ولَا يَزْنِينَ ولَا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ ولَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَه بينَ أَيْدِيهِنَّ وأَرْجُلِهِنَّ ولَا يَعْصِينَكَ فى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ واسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الممتحنة : ١٢)

فى هذه الآية الكريمة بيان لشروط القبول الخاصة بالمؤمنات ليَكُنَّ فى صفوف الإيمان . وهذه الشروط تمثِّل الدستور الأزلى للمؤمنات ، ذلك الدستور الذى يضمن للجماعة خيرها بلا استفتاء ، ويحقق مطالبها دون أن يكون فى حاجة إلى أغلبية .

ولنستعرض مواد الدستور الإلهى المنزَّل من خالق البشر سبحانه وتعالى ليكفيهم مؤونة البحث والصواب والخطأ ، وليوجِّههم إلى ما خُلقوا من أجله ألَا وهو تحقيق العبودية لله عن طريق إعمار الأرض وتطوير الحياة ، فى ظل هذه المواد الإلهية .

ونستطيع أن نقسِّم هذا الدستور إلى أبواب عامة :

الباب الأول : تنظيم علاقة المؤمنات بخالقهن .

الباب الثانى : واجب المؤمنات نحو المجتمع .

الباب الثالث : واجب المؤمنات نحو الأسرة .

الباب الرابع : واجب المؤمنات نحو أنفسهن .

الباب الخامس : تنظيم علاقة المؤمنات بأوامر رسول الله ﷺ [وللحاكم المسلم الآن بعض حقوق تلك العلاقة] .

الباب السادس : الحقوق .

ولنُشر إلى كل باب ببعض التوضيح .

الباب الأول : تنظيم علاقة المؤمنات بخالقهن :

وهذه العلاقة مبنيَّة على طواعية المؤمنات ، وهذه الطواعية أساس ما سيأتى ، لأنها تعنى الاقتناع والخضوع لسلطان الله سبحانه وتعالى ، يعبِّر عن ذلك قوله تعالى : ﴿ **إذا جَاءكَ المُؤْمِناتُ** ﴾ أى اختياراً لا إكراهاً .

وهن مؤمنات من أجل ما سيأتى من الواجبات ، وبدون التزامهن بالمطالب التالية فلا يُطلق عليهن لفظ المؤمنات .

وإذا كانت الآية الكريمة قد قدَّمت الصفة على مستلزماتها ، أى قدمت صفة الإيمان على شروط ذلك الإيمان فذلك للترغيب ، فمن أرادت أن تتصف بصفة الإيمان فعليها أن تراعى بقية أبواب الدستور .

وأساس العلاقة بين المؤمنة وربها التوحيد وتجنُّب الإشراك . ومقتضى التوحيد أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والإيمان بالملائكة والرسل والكتب السماوية واليوم الآخر .

الباب الثانى : واجب المؤمنات نحو المجتمع :

وقد ذكرت الآية الكريمة فى هذا الباب أمرين :

أ - ألَّا يسرقن .

ب - ألَّا يزنين .

والسرقة خيانة لما استُحفظت المرأة عليه ، ومعناها : أن يدَّعى الإنسان ملكية شىء ليس له حق فيه فى غفلة من المجتمع والقانون بحيث إذا ظهر أمره عُوقب .

والزنا خطر يجب تجنُّبه ، وتجنُّب الدوافع إليه ، فالمؤمنة مطالبة بأن تدع الزنا فلا ترتكبه ، ولا تأتى من الأعمال ما يشجع غيرها على ارتكابه .

وقد ذكرت الآية هذين المحظورين باعتبارهما أساس البلاء ، يدفعان إلى ما سواهما من المعاصى ، واتقاؤهما أجلُّ ما يمكن أن تقدِّمه المرأة للمجتمع . إذ فى السرقة خروج من المرأة على طبيعتها ، وفى الزنا انسياق للمرأة وراء شيطانها وقضاء على جانب الخير عندها .

الباب الثالث : واجب المؤمنات نحو الأسرة :

وقد ركزت الآية فى هذا المجال على تجنُّب قتل أولادهن . والقتل يكون عن أحد طريقين :

الأول : سلب الأولاد حياتهم بالوأد وغيره لسبب ما كخشية الفقر وغير ذلك .

الثانى : قتلهم معنويًا بمعنى أن الطفل يكبر وينمو فلا يجد حنان الأمومة ، وحرارة الأسرة ، ولا يجد من يرسم له طريق الخير ويحمله عليه ، ويحذِّره من طريق الضلال ويردُّه عنه . وهذا دأب أغلب الأمهات اليوم ، يقتلن أولادهن بذلك ، ونتيجته ما نرى من استهتار بالقيم ، وكفر بالأسرة ، ودعاوى إلى الإلحاد ، وإيمان خارق بالمادة .

ونلاحظ أن الآية ركَّزت فى هذا الباب - كما ركزت فى سابقه - على ما هو أقرب إلى طبيعة المرأة ، وما هو فى متناول يدها عادة .

وللإنسان المفكِّر أن يستخلص مغزى ذلك الواجب وتأكيد القرآن عليه ، ودلالته بالنسبة لوظيفة المرأة وحدودها .

الباب الرابع : واجب المؤمنات نحو أنفسهن :

وقد ذكرته الآية : ﴿ **وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بينَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ** ... ﴾ .

وقد قيل فى معناه : ألَّا تُلحق بزوجها من ليس من نسله من الأبناء ، ولكن الآية - فوق ذلك - أوردت هذه المادة من الدستور حماية لمجتمع النساء مما قد يرد

عليه من استهتار . وقد دعت هذه المادة إلى الحرص من افتراء بهتانٍ ما فى أى حالة من الحالات ، وخصّت حالتين بالذكر :

الأولى : الحذر من إتيان افتراء البهتان بين أيديهن . ومقتضى ذلك ألّا تسكت مؤمنة عما يقع أمامها وبين يديها ومن أخواتها ، فلا تكفّ عن المخطئة نصحها ، ولا تضعف فى رد المنكر وإقامة الحق ، وعلى ذلك فالآية تطالب النساء المؤمنات باليقظة والحرص على ألّا يسود بينهن السوء والبهتان ، ولعل استخدام لفظ البهتان وسط كلمتين : الأولى تدل على الاختيار ، والثانية تفيد الطغيان على المجتمع ، وذلك قوله تعالى : ﴿ ولا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَه ﴾ أى يرضين البهتان ويفترين ويطغين بذلك على المجتمع الذى يتطلب الأمر حمايته من أنواع البهتان المختلفة .. نقول : لعل استخدام البهتان وسط هاتين الكلمتين يفيد التحذير من أن البهتان فى حد ذاته خطر ، فإذا كان هذا البهتان افتراء على المجتمع وكان نابعاً من الرضا به والحرص عليه فهنا تكمن الخطورة المضاعفة والسمُّ القاتل .

الثانية : الحذر من إتيان افتراء البهتان بين أرجلهن . والآية تحذّر فى هذا الجانب المرأة كفرد عضو فى جماعة من نفسها ، فلا تخضع لنداء شهوتها أيًّا كان الباب الذى يصدر منه هذا النداء ، فعلى المرأة أن تعالج ذاتها وتحافظ على أخلاقياتها[1] .

الباب الخامس : تنظيم علاقة المؤمنات بأوامر رسول الله ﷺ :

والآية تقول : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فى مَعْرُوفٍ ﴾ وليس معنى ذلك أن الرسول ﷺ يمكن أن يأمر بغير المعروف ، ولكن الآية تنتصر على دوافع الطبيعة لدى المرأة وتوجّه نظرها إلى الاستجابة للمعروف وإن خالف هواها . والآية تطلب من المؤمنة الطاعة المطلقة للرسول ﷺ فى كل ما يأمر به .

ويلاحظ أن المواد الدستورية المتعلّقة بالواجبات قد بدأت بإحكام العلاقة بين المؤمنات وربهن ، وانتهت بإحكام العلاقة بين المؤمنات ورسول الله ﷺ ، وبذلك تعطى تلك المواد ضمانات التنفيذ والاستمرار .

---

(١) لعل افتراء البهتان « بين أيديهن » أُريد به فى الآية كل ما ينتشر من أذى تكون جماعة النساء سبباً فيه . أما البهتان الذى بين « أرجلهن » فنعنه تحذير للمرأة أن تستجيب أو تهمّ وتخضع لشهوتها دون وازع من عقل أو خُلُق ودين .

الباب السادس : الحقوق :

وإذا تحققت الواجبات السابقة فإن ثمارها ما ذكره تعالى فى الآية ﴿ ... **فَبايِعْهُنَّ واسْتَغْفِرْ لَهنَّ اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ .

وفى الآية جانبان لحقوق المؤمنات :

الأول : المبايعة وهى اعتراف من ولى الأمر بدور المؤمنات فى رعاية المجتمع وحمايته من الانحراف . وتلك المبايعة تضمن للمرأة ميدان العدالة فى المعاملة ، فلا يُسَنّ من القوانين ما يحيف عليها ، ويضمن لها أن تتمتع بكل أمر ليس فيه مخالفة لواجب .

الثانى : استغفر لهن الله .. والاستغفار تهيئة الجو للإيجابية والعمل الصالح . فمقتضى الاستغفار تهيئة الجو للمرأة المؤمنة أن تؤدّى دورها على أكمل وجه ، فلا تُشغل بغير ما بايعت عليه ، ولا يضيع وقتها فيما لا طائل تحته ، ممَّا بيَّناه .

وهناك ملاحظة إجمالية على الآية نريد أن نطرحها ألَا وهى أن الفرائض جاء بها الأمر ضمنيًّا للمؤمنة وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **لا يُشْرِكْنَ باللهِ شَيْئاً** ﴾ أما الأوامر التى وردت صريحة فهى تلك التى تحدِّد الخطوط العريضة لوظيفة المرأة فى المجتمع ، وهى خطوط تدور كلها حول محور واحد هو طبيعة المرأة ، ولا تشير من قريب أو بعيد إلى خطة ترجيل المرأة أو إدماجها فى الجنس الآخر .

* * *

المستضعفون فى الأرض

﴿ إنَّ الَّذينَ توفَّاهُمُ المَلائِكةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِم قَالُوا فِيمَ كُنْتُم قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أرضُ اللهِ وَاسِعةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئكَ مَأْوَاهُم جَهنَّمُ وسَاءتْ مَصيراً . إلَّا المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلْدانِ لَا يَستطِيعُونَ حِيلةً ولا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً . فأُولئِكَ عَسى اللهُ أنْ يَعْفُوَ عنهم وكانَ اللهُ عَفُوًّا غفُوراً ﴾ (النساء : ٩٧ - ٩٩)

الحياة فى تطور مستمر ، وهذا التطور يبهر الناس ويبهجهم ، وفى نفس الوقت يستذلُّهم ويستعبدهم ، لأنهم يرون فيه وجهاً غير ما ينبغى أن يروه فيه . إن تطور الإنسان واجتيازه المراحل المختلفة إلى الكهولة شيء رائع ، ولكن هناك ما هو أروع منه .. هو أن يلتفت الإنسان إلى واجبه حين يبلغ طور الشباب فالرجال .. الخ فإذا ما راح يبالغ فى الحفاوة بمظاهر كل طور من أطوار حياته فإنه يخسر كل شيء . فماذا يعود على الشاب من وراء الحفاوة مثلاً بشاربه حديث النماء ؟ أو ماذا يجنى رجل من الانصراف إلى الشعيرات البيضاء يعدُّها ويراقب انتشارها ويرصد كثرتها ؟ رغم أن حوله من الاختراعات ما يبهر ويدهش النفس .

إن الناس كلفوا بمتابعة هذا التطور وعشقوه حتى أنه ليستغرقهم فى خضمِّه العميق وأمواجه المتجددة ، ونسى الغالبية العظمى أسمى ما خُلقوا من أجله وهو

تحقيق معنى خلافة الإنسان على الأرض ، وأصبحنا نسمع أن ضرورات الحياة تغلب الإنسان ، وأنه ضعيف أمام المجتمع ، وأن الأمر ليس بيده ، ولو أن الأمر بيده لنفَّذ كذا وكذا .. هذه العبارات التى تندب ما فات وتتخوَّف مما هو آتٍ دون أن يملك قائلوها القدرة على إصلاح أمر من الأمور التى تطحنهم . فحينما يتحدث أب عن الأخلاقيات وضرورة الاحتشام مثلاً ثم تسأله : ولماذا لا يجعل بيته ميداناً لإصلاحاته ؟ سارع وحدَّثك عن حتميات التطوُّر وعجز الإرادة أمامها .

فإذا ما شكا إليك آخر تلك الضائقة التى يعانى منها ، وشكا زيادة المصروف وتضاعف التبعات ، ثم يترك لك مجال التعليق على شكواه ، فتتجه إليه متسائلاً فى تعجب : ولكنك اشتريت بالأمس القريب ثلاجة أو اقتنيت مسجلاً ، ولم يكن لذلك ضرورة على الأقل إلى أن تنصلح أحوالك ، إذا به يُظهر عجزه أمام تيار الحضارة المادية ، واضطراره إلى مجاراة العصر الذى يختلف « أذانه » عن العصر الذى سبق .

بل إنك أحياناً تلتقى بسيدة تُسِرُّ إليك أنها سئمت « الموضة » ولكن ما الحيلة أمام التيار الجارف ؟

وهؤلاء جميعاً قد يَتخلَّوْنَ عن الكثير من الواجبات التى فرضها الله على الناس .. فالصلاة عندهم لا تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والزكاة معطَّلة ، والصوم ساعات يقضونها فى غيبةٍ عن الله ينتظرون بصبرٍ فارغ حلول وقت الإفطار لتتلقَّف مسامعهم التمثيليات وما إليها مما يضيِّع عليهم فرص القنوت وقراءة القرآن ، بل إنهم – أحياناً – يفكِّرون وهم صائمون : فى أى ملهى سيقضون سهرة ليلة القدر ؟ وفى أى نادٍ سيسهرون ويرقصون ؟ ورمضان يحب السهر حكمة مشهورة !

وكل هؤلاء بعض من يعنيهم قول الله تعالى : ﴿ **الَّذين تَتوفَّاهُم المَلائِكَةُ ظَالِمِي أنْفُسِهم** ... ﴾ فقد ظلموا أنفسهم كثيراً ، وفوَّتوا عليها خيراً عميماً ، وتتوجه إليهم الملائكة تسائلهم عن سبب هذا الظلم للنفس ، فيجيبون مُبيِّنين

السبب قائلين : ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الأَرْضِ ﴾ يسأل الملائكة : ﴿ فِيمَ كُنتُم ﴾ أى ما الذى كان يشغلكم ؟ فتأتى الإجابة السابقة : كنا مستضعفين فى الأرض ، أى كانت تغلبنا حضارة الأرض وماديتها فلم نملك أمامها تصريفاً ، ولم نستطع لها دفعاً .

ولنتخيَّل هذا السؤال توجِّهه الملائكةُ إلى أحد سكان القاهرة لحظة الموت وقد ظلم نفسه فتقول له : فيم كنت ؟ فيجيب : كنت أعيش فى باريس تلهينى مباهجها وتنسينى ذكر الله والعمل الصالح .. لقد كان الأمر مفروضاً علىَّ ، فرضه المجتمع بحضارته وتياراته التى ضغطت علىَّ فلم أستطع أن أصنع شيئاً بمفردى . ويأتيه التوبيخ والتأنيب على ذلك الاستسلام الذى لا معنى ولا عذر له ، فتقول له الملائكة : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرضُ اللهِ وَاسِعةً فتُهاجِرُوا فِيها ﴾ أى أنه إذا كانت القاهرة - مثلاً - قد ضاقت بعبادتك ، ولم تجد فيها ما يعينك على دينك أفلم تكن أمامك فرصة الهجرة منها إلى مكان تقتات فيه بلُقيمات وتتمكَّن من أداء واجبك قدر المستطاع ؟ إنها حجة الفاجر الذى لا تُوجد لديه رغبة أكيدة فى القيام بحق الله .

إن الإسلام لا يطالب معتنقيه بالهروب من الحياة ، إنما يرفض لأهله أن يستسلموا لظواهر التطوُّر العارضة وينصرفوا بها عن مرادهم الأسمى ، إنه يطالبهم بالبعد عن مواخير المعاصى . وقد يحتجُّ إنسان بأنه مرتبط بهذا المكان أو غيره للعمل والاستقرار ، ولكن هذه الحجة واهية فإن لقمة العيش لن تُعجز طالبها فى أى مكان غير هذا الذى توافرت فيه أركان الفتنة . إن الإنسان قد يخدع نفسه لأنه فى هذا المكان تتوافر فيه ألوان الترف والمتعة ، وهو يُوهم نفسه أنه يسعى من أجل اللقمة لا من أجل المتعة وهؤلاء ﴿ يُخادِعُونَ اللهَ والَّذينَ آمَنُوا وما يَخْدَعُونَ إلَّا أَنْفُسَهُم وما يَشْعُرونَ ﴾ (البقرة : ٩)

وقد توعَّدتهم الآية الكريمة بأن لهم ﴿ جَهنَّمُ وسَاءتْ مَصيراً ﴾ .

ومن فضل الله سبحانه وتعالى أنه لم يضيِّق على خلقه ، ففيهم المعذور حقيقة فهم ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلةً ولا يَهْتدُونَ سَبِيلاً ﴾ وهؤلاء أمرهم موكل إلى

الله سبحانه وتعالى – وكل شيء موكول إليه إن شاء عذَّب وإن شاء غفر ﴿ وكان اللهُ عَفُوًّا غَفُوراً ﴾ .

فإلى كل مَنْ يشعر أنه مستضعف : إنه لا عذر لأحد ، وإن كانت الأعذار المختلفة تُقبل لدى البشر وتُصدَّق ، فإنه لا يُقبل عند رب العرش العظيم إلا ما هو صادق وما صحَّت النية فيه .. وما أحوجنا أن نقدِّم لأنفسنا الخير :

﴿ قُلْ إنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى ﴾ (البقرة : ١٢٠)

فما علاقة هذا بموضوعنا ؟ إنه صيحة نذير للمرأة المخدوعة بالمظهر والزينة الصماء .

فهل هي مستضعفة ؟ فلتأخذ أمرها بيدها ، فإن أمر زينتها قد نبَّه القرآن إليها وحذَّر من مغبتها ، وصرح رسول الله ﷺ بالتحذير في أحاديث ذكرنا طرفاً منها .

إن السؤال مطروح .. والملائكة تنتظر .. والقبر باب يدخله الجميع .

* * *

بين الآباء والأبناء

إنها تبعَة جسيمة تلك التى يتحملها الآباء تجاه الأبناء ، فليس دور الأبوة مقصوراً على إتاحة الظروف الملائمة للأبناء ، أو على إرسالهم لمعاهد العلم ، بل إننا نعتبر مثل تلك المسئولية مسئولية فردية يقوم بها كل أب قدر طاقته . إن هناك مسئولية أخرى تزيد أهميتها على تلك المتقدمة : ألا وهى المسئولية الجماعية للآباء تجاه الأبناء ، وتتمثَّل تلك المسئولية فى توريث جيل الأبناء مجتمعاً سويًّا مستقيماً ، تتأصَّل فيه العقائد السليمة ، وتنمو فيه العادات الطيبة ، فليس من الحرية أن يعدو أب على التقاليد المرتكزة على الإيمان ، ويسمح لأبنائه أن يدوسوها . فإن خروج أحد الأجيال على تقليد من هذه التقاليد يُعَدُّ تصريحاً وإباحةً للجيل التالى ليثور على تقليد آخر ويستهين بغيره .. والتقليد هنا قد يؤدى معنى الفريضة .. وهذه عودة إلى ما يحكيه القرآن عن الجاهلية الأولى :

﴿ إنَّا وجَدْنا آبَاءَنا عَلى أُمَّةٍ وإنَّا علَى آثَارِهم مُقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف : ٢٣)

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنا آبَاءَنا كَذلِكَ يَفْعلُونَ ﴾ (الشعراء : ٧٤)

﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُركَ أنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آبَاؤُنا ﴾ (هود : ٨٧)

إن الحديث عن الوقت الذى خرجت فيه المرأة وتصويره على أنه عيد يستحق منا البهجة والسرور ، وذكر الدعاة الأوائل لتحرير المرأة وانطلاقها على أنهم رسل

الحضارة وأنبياء التقدُّم – إن كل ذلك لا يستوجب منا فخراً وإنما يستوجب الأم والحسرة على جيل جعل من نفسه داعية شر وبؤس فى الآخرة إلى جانب ما أحدث من أزمات فى الحياة الدنيا .

إنه لا يسعنا إلا أن نستعيد التحذير المدوِّى الذى أطلقه رسول الله ﷺ والإسلام يشق طريقه إلى المجد ديناً ودولة ، يقول ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ فطُوبى للغرباء » .

تحذير واضح مؤدَّاه أن يَحْذَرَ كلُّ مَنْ يملك إمكانيةً ما أن يستخدمها لدفع الإسلام نحو الغربة .. وزىُّ المرأة المسلمة أول الطريق إلى هدم القيم ..

١ – فهى طريق الشيطان والغواية .
٢ – وهى طريق الغفلة عن الإيمان .
٣ – والنظرات المحرَّمة سهم من سهام إبليس .
٤ – وطريق جهنم هو طريق الهوى كما قال ﷺ : « حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات » .

وعندما يعيش الإنسان فى جوٍّ صافٍ فإنه يستمتع بهذا الجو وتقلُّ شكواه ، ولكنه إذا عمد إلى إطلاق الدخان وإثارة الغبار فإن ذلك سينقلب عليه أذى فى عينيه وضيقاً فى صدره . والعجب أن يتجاهل سبب شكواه ويتساءل عما أصابه دون أن يُعمل عقله فيما قدَّمت يداه ليصل إلى أنه وحده السبب المباشر فيما حدث .

هذا هو ما يحدث فى حياتنا العامة والخاصة على السواء ، من حيث العقيدة وأخلاقيات الأسرة والمجتمع .

فلقد تعرَّضت عقيدة الإيمان إلى هزَّة عنيفة حين تبنَّت بعض الدول عقيدةً نشرتها تقوم على إنكار الإلهية ، فلم تؤمن بوجود إله ونسبت كل شىء إلى المصادفة التى لا تتخطَّى حدود المادية ، وكم أنفقت من أموال لإغراء الدول الضعيفة بالخروج على العقيدة بل وإعلان الحرب عليها . وحين يهتزُّ الأساس الأول للإيمان لا بد أن تهتزَّ كافة الموازين بعد ذلك .

أقول هذا بمناسبة كثرة الحديث والشكوى من تفكُّك الأسرة ، وعقوق الآباء ، وتمرُّد النساء ، وقتل الأزواج ، وخنق الأطفال ، ثم الخيانة . إلى غير ذلك .

ولا بد أن نشير إلى أن الإنسان بطبعه خطَّاء وهذا جزء من وجوده . ولقد نزل التشريع مصحِّحاً لهذه الأخطاء محاولاً أن يحدَّها فى أضيق الحدود حتى لا يتحول الخطأ إلى خطر ، وحتى لا تصير الرذيلة ظاهرة . ولقد قلنا إن الرسالات لم تنزل للقضاء على الخطأ بل نزلت لتصحيحه ، ودعت الإنسان إلى أن يتوب إذا وقع فى الذنب أو دفعته الظروف إلى اقترافه .

إن التوبة من الذنب لا تعنى أن الإنسان تخلَّص نهائيًّا من طبيعته أو تبرَّأ من حقيقته بل تعنى فى جوهرها ندماً وعزماً ، وإذا صحَّ العزم ارتقى الإنسان ، أما إذا انقطع العزم وعاد الإنسان إلى المعصية فإنه يكون فى حاجة إلى التوبة من جديد ، وإلى تجديد العهد على البعد عن هذا الخطأ أو تلك المعصية .

وقد شرع الدين الحدود ، وزجر عن المعاصى ، وتوعَّد مرتكبها بالعذاب ، ليصير الذنب محدوداً فى حجمه محصوراً فى نطاقه ، ليكون للاستقامة مجالها الأوسع وسيطرتها على جوانب الحياة .

وقد انقلب الوضع الآن فصارت الرذيلة يُتباهى بها ، وأصبح الخروج على الشرع أناقة وتحضُّراً ، وأصبح التمسُّك بأهداب الدين رجعية وإرهاباً ، وفُتحت الأبواب للمتبرجات وأُغلقت دون الملتزمات ، وشق المتخنثون طريقهم إلى الشهرة والمال والنجومية ، واشتد الحال بمن يغلب عليه الحياء وتتملَّكه الأخلاقيات ، وخرجت المرأة على قانونها فمالت إلى الرجولة ، ونسى الرجل حقيقته فمال إلى التخنث والأنوثة . وكما استهوى التبرج النساء استهوت الزينة والتخايل بعض الرجال وصار يهتم بلمعة حذائه أكثر من اهتمامه بثقافة عقله ، وارتفع عنده مقدار الأناقة والمظهرية حتى غطت على جوانب إحساسه وانتمائه .

وتركَّزت مطالب الجميع حول الماديات – كما أشرنا – فانحلَّت كل الوشائج وتفكَّكت كل الروابط إلا الروابط المادية ، وظن الأب – ومعه الأم – أن كل مشكلة محلولة إذا تمكَّن من الوفاء بالمطالب المادية لابنه : قميص غالى الثمن ،

ينظلون من أشهر الماركات ، حذاء بسمة معينة ، اشتراك فى النادى ، سيارة إن أمكن ذلك . وفى المقابل ظن الولد أن تقصير والده فى أمر من هذه الأمور يُعتبر عيباً فى الأبوة وشَيْناً أو عاراً على الوالدين ، وبذلك انهارت العلاقات المعنوية وتحوَّلت إلى علاقات تجارية ومواقف لها ثمنها .

ونتيجة لهذا التحوُّل انهارت القيم وتبدَّلت المعايير وصار يحدث ما نستغربه ، ونتساءل : كيف يحدث هذا ؟ وتناسينا ما قدَّمته أيدينا :

- حينما نشجع الإلحاد نهزّ كيان المجتمع .
- وحينما نتبنى العلمانية يكون انهيار الأسرة والقيم .
- وحينما نعمل للدنيا وننسى الآخرة يكون الدمار الشامل .

ماذا نقول لشباب خرجت أمهاتهم للعمل وتركن البيوت ، وانصرف الآباء إلى العمل كذلك ، وهمُّ كل جانب المال من أجل المزيد من الرفاهية ؟

إن الحسبة تحوَّلت إلى كم من المال ، ومقدرة على إنفاق هذا المال ، ولم تعد الأبوة والأمومة عملة رائجة فى سوق المال ، ومع التكالب على الماديات انهارت كل القيم أو بدأت فى الانهيار .

فهل من عاقل يتبصر الأمور ؟

* * *

المرأة والحضارة

مرَّت على العالم أدوار حضارية مختلفة ، تأصَّل كل دور منها فى دولة عالمية كان لها وضعها ومكانتها فى التاريخ الإنسانى . ونذكر من هذه الدول : الدولة المصرية القديمة ، ودولة الروم ، والفرس ، والدولة البيزنطية ، والصين القديمة ، والدولة الإسلامية ، ثم الدولة الأوروبية التى حملت لواء النهضة الغربية .

وعلى مدار التاريخ تبهرنا الحضارات المختلفة ، ويدهشنا التطور الإنسانى ، وعمق الفكر البشرى فى مختلف أدوار الحضارة . فماذا كان دور المرأة فى صنع الحضارة الإنسانية ؟

ولنبدأ بالحديث عن المجتمع البشرى البدائى حيث لم يكن يحكم المجتمع قوانين منظَّمة أو ضوابط أخلاقية . والمجتمع بهذه الصورة ليس مجتمعاً بالمعنى الدقيق ، لأن المجتمع البدائى كان مجموعة أفراد تشغلهم حاجاتهم الفردية الضرورية ، مجرد دفاع عن النفس ضد الوحوش والأعداء والطبيعة القاسية ، ومجرد إشباع لضرورات الحياة من مأكل وملبس ، وربما لم تكن الغريزة الجنسية منظمة بقوانين الأسرة المعروفة ولكنها كانت أقرب إلى الحيوانية العادية ، أى أنها كانت تتم بين الذكر والأنثى بلا تحديد حيث كانا يمضيان عقب قضاء الشهوة كل إلى وجهته .. إلى حيث المجهول ، وقد لا يلتقى أحدهما بالآخر مرة أخرى ، وكان مقتضى ذلك

أن تتحمَّل المرأة أعباء الحمل والولادة وإرضاع الصغير والمحافظة عليه إلى أن يكبر ويقوم بأمر نفسه .

وهكذا رسمت الطبيعة للمرأة دورها منذ البداية .. دور فطرى حسب إمكانياتها . ولقد أراد الله تعالى للمرأة أن تكون أساس الأسرة ، فتدرَّبت - مبكراً - على العناية بالأطفال وتربيتهم منذ تلك المرحلة المجهولة فى حياة البشرية .. مرحلة ما بعد ابنى آدم - هابيل وقابيل - حيث هام القاتل على وجهه وبدأ بتلك الجريمة مرحلة البدائية .

وهناك فرض آخر : أن الحياة لم تكن بدائية همجية من ناحية تكوين الأسرة لأن حب التملُّك والأمومة والأبوَّة غرائز فطرية فى الإنسان فارتبطت نشأة الأسرة بنشأة الإنسان .. نشأت الأسرة وقد حُددت وظائف أعضائها كما حُددت وظائف القلب والكبد .. فأُجبر الرجل على أن يقوم بالدور الذى لا زال يقوم به حتى الآن فى المجتمعات السويَّة التى لم يَجْرِ عليها التشويه الإدارى ، كما أن المرأة أُجبرت على القيام بنفس دورها للآن لم يجبرهما عليه أحد إلا الخصائص المميزة لكل منهما أو الفطرة والغريزة .

وحينما نستعرض التاريخ الحضارى الإنسانى فى مختلف أدواره نرى أنه لا ينفك عن أحد جانبين : جانب التطور والازدهار ، أو جانب التدهور والانحدار . ودور المرأة فى الجانب الأول لم يتعد دورها الفطرى المرسوم لها .. أمًّا ، وزوجاً وأختاً ، دوراً مساعداً بل دافعاً إلى النهضة والتقدُّم والرقىِّ ، لأنها حينئذ عامل أساسى للاستقرار المؤدِّى للإبداع ، استقرار المجتمع دون نظر إلى بعض الحالات الفردية التى تُعَدُّ فيها المرأة مصدر قلق للزوج مما لا أثر له فى مسيرة المجتمع الإنسانى نحو التقدُّم والازدهار .

وإذا ساءلنا المراجع التاريخية المعتبرة عن دور المرأة فى حضارة الرومان واليونان والحضارة الإسلامية بل والحضارة الغربية الحديثة فإن الإجابة لن تتعدَّى ما قلناه .. إنه دور ينحصر فى عنايتها ببيتها واهتمامها بزوجها وأولادها ، إنه دور منح للمجتمع الحب والحنان والاستقرار مما دفع بالحضارة الإنسانية دوماً إلى الأمام .

ولقد تحدَّث القرآن الكريم عن بعض النماذج النسائية الصالحة : منها امرأة فرعون التى اعتصمت بالحق وعرفت حقيقة دورها فى الحياة الإنسانية فرفضت واقع زوجها وطغيانه قائلة : ﴿ **ربِّ ابنِ لى عندكَ بَيْتاً فى الجنَّةِ ونَجِّنى مِنْ فِرْعَوْنَ وعَمَلِه** .. ﴾ (التحريم : ١١) وكان إيمانها مدخلاً عظيماً لأن تقوم بدورها كاملاً ، فدفعتها غريزة الأمومة إلى أن تحتضن الوليد الذى ألقت به الأمواج بين يديها .. إنه لم يختطفه الجنود من بين يدى أمه كما اختطفوا باقى أطفال بنى إسرائيل ، بل إن القدرة الإلهية ساقته إليها وكأنه اندفع من بين أحشائها ، فأحسَّت أنها أمه فاتخذته ولداً . وهكذا تربَّى على يدى امرأة فرعون الغلامُ الذى أطاح بعد ذلك بجبروت الفراعنة . ولم يكن ذلك ليُتاح لو أن امرأة فرعون خرجت عن طبيعة دورها المرسوم وتبجَّحت كما تبجَّح زوجها فرعون وخرج عن حدوده .

ولقد اشتهرت أثينا فى قمة حضارتها بأن « البنات كن يدرسن فى منازلهن ، وكان تعليمهن يقتصر فى الغالب على علم تدبير المنزل ، وكانت أمهاتهن يعلِّمنهن القراءة والكتابة والحساب والغزل والنسيج والتطريز .. ومن النساء اليونانيات عدد قليل تعلَّمن تعليماً عالياً ولكنهن فى الغالب من المؤنسات (يقصد فتيات الليل) أما النساء المحترمات فلم يكن تعليمهن يتجاوز المرحلة الابتدائية »[١] .

ولعلك تلاحظ الفارق بين المؤنسات والمحترمات من النساء فى أثينا ، وأن الأوليات خارجات عن القاعدة التى تحكم دور المرأة .

ونقرأ فى نفس المصدر أن هذه الحضارة ازدهرت من غير أن يكون لها عون أو حافز من المرأة[٢] .

ويتحدَّث « ول ديورانت » عن المرأة الملتزمة بحدود بيتها والمتمسِّكة بالقيم ، وعن الرجال الذين يرفضون أن تُستباح حرماتهم فى عهد الازدهار فيقول : « وما من شكٍّ فى أن الرجل كان يعرف ما يتمتَّع به الرجال من حرية فى المسائل

---

(١) قصة الحضارة « ول ديورانت » الجزء الثانى من المجلد الثانى ، ص ٨٣ ، ترجمة محمد بدران .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٧ .

الجنسية فى أثينا (سبق أن أشار إلى المؤنسات) معرفةً تمنعه أن يجازف بإطلاق الحرية لزوجته أو ابنته ، فهو يختار الحرية لنفسه على أن يكون ثمنها عزلة زوجته أو ابنته . ولقد كان فى وسعها إذا تحجّبت الحجاب اللائق بها وصحبها مَنْ يُوثَق به أن تزور أقاربها ... الخ »[1] .

والشاهد فى هذا الذى نقلناه أن المرأة كانت مصونة فيما عدا الشواذ من بائعات الهوى والمتعة . وهكذا نجد أن الطابع العام لأثينا هو التزام المرأة وعدم خروجها على مقتضيات دورها ، ولكن الأمر لم يدم فقد حدثت الإرهاصات بالتحلُّل من القيم وذلك حينما ركن كبار القوم إلى الأنثى « أصبح العهر فى أثينا – كما أصبح فى معظم مدن اليونان – مهنةً كثيرةَ الروَّاد ، ذات فروع مختلفة ، لكل فرع أخصائيات ، وكانت السبيل ميسَّرة أمام ذات الكفاية للترقِّى فى هذه المهنة . وبهذه الطرق خُلِّدت بعضهن ، منهن أركيانسا التى كانت تسلِّى أفلاطون ، ودانى وليونتيوم اللتان علَّمتا أبيقور فلسفة اللذة »[2] .

وسرعان ما أثمرت هذه الغراس ، فآتت أكلها المرَّة . ولنستمع إلى « ول ديورانت » يتحدث عن اضمحلال الحرية اليونانية وسقوطها فيقول : « ولما فقد دين الدولة سلطانه على الطبقات المتعلِّمة زاد بالتدريج تحرير الأفراد من القيود الأخلاقية القديمة ، فتحرَّر الابن من سلطان أبويه ، وتحرر الذكور من الزواج ، وتحرَّرت المرأة من الأمومة ، وزاد عدد العزَّاب والسرارى ، وأصبحت الصلات بين هؤلاء وأولئك هى الطراز الحديث الذى يهواه الناس ، كما أن الاتصال الحر بين الرجال والنساء أصبح له الغَلَبة على الزواج الشرعى » .

ثم ينقل قول ثيوبمبس : « لقد كان الشباب يقضون كل أوقاتهم بين السرارى والقيان ، أما الذين هم أكبر من هؤلاء قليلاً فكانوا منهمكين فى الميسر والفسق ، وكان الناس كلهم ينفقون على المآدب العامة والملاهى أكثر مما ينفقون على الأعمال اللازمة لحفظ كيان الدولة ورعاية مصالحها » .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١١٨ .

(٢) الجزء الرابع من المجلد الثانى ، ص ١٠٥ وما بعدها .

ولعلك ترى المقدمات والنتائج .. تحلُّل انتهى إلى الترف وعدم الحرص على كيان الدولة . وفيما يلى نرى من النتائج ما هو أخطر على الحضارة .

يقول ديورانت : « وأصبح تحديد عدد أفراد الأسرة تحديداً اختياريًّا هو الطراز العصرى فى ذلك الوقت ، وكانوا يصلون إلى هذا الغرض بمنع الحمل أو الإجهاض .. وكانت الأسر القديمة سائرة فى طريق الانقراض فلم تكن توجد – على حد قول سقراط – إلا فى قبورها »(١) .

والوضع فى أثينا يمكن أن يُقاس عليه ، إذاً ما من شكٌّ فى أن الاستقرار الحضارى يُلحظ فيه التزام المرأة والرجل كليهما بدوره الفطرى ، فلا الرجل ينسى دوره ويتعدَّاه ، ولا المرأة تنسى دورها وتتعدَّاه ، وهذا أمر قد يشذُّ عليه البعض دون أن يقدح فى صدقه .

وقد جاء الإسلام يقنن للفطرة الإنسانية ويعدل من اعوجاجها الذى طرأ عليها بفعل غلَبة الهوى ، فزرع فى نفوس المسلمين الهيبة من المحرَّمات واحترام الأوامر الإلهية والحرص على إتيان الطاعات على أكمل وجه وبأحسن صورة . وكان الإسلام حازماً حاسماً فى توضيح خطوط العلاقة بين قطبى المجتمع – الرجل والمرأة – ولم يدع الأمر لتحليل المحلِّلين وتحريم المحرِّمين .

وكان ذلك سبباً من الأسباب الرئيسية التى دفعت بالمسلمين إلى المجد ، فلم تتصادم الرغبات ولم تتداخل الجهود بل تكاملت فى سبيل دفع عجلة الحياة الكريمة العظيمة ، وانتشر المسلمون فى أقطار الأرض يردُّون للإنسان كرامته وينتشلونه من وهاد الجهالة وعماية الاستعباد ، فتكوَّن المجتمع القويم السليم الذى استطاع أن ينهض على أنقاض التفرُّق والضياع ، وتكوَّنت دولة لها وزنها العالمى ودورها الحضارى .

ولقد كان الالتزام بتعاليم الإسلام – من قِبَل المرأة والرجل – هو المهر الذى قدَّمه المسلمون لبناء دولتهم العالمية التى حملت على عاتقها تحرير البشرية من أغلال القرون الأولى .

---

(١) الجزء الرابع من المجلد الثانى من قصة الحضارة ، ص ٣٩٢ وما بعدها .

ثم جاء العصر الحاضر لتتفتّح عيون المسلمين على جيوش الفرنسيين تدقّ أبوابهم ، وتقتحم الأزهر بخيولها وتصوّب إليه مدافعها ، واستمرت جيوش الغرب ترحف على ديار المسلمين حتى تمكّنت من الاستيلاء عليها جميعاً باستثناء الجزيرة العربية حيث لم تر فيها مطمعاً يُذكر اللهم إلا فى عدن المحمية البريطانية فى عهد الاستعمار .

قبل ذلك كان المسلمون يعانون من ضعف بيّن فى القوة العسكرية والثقافية والعلمية . وفى هذه المرحلة المظلمة فُقدت الأندلس . ولعل فى مقدمة الأسباب التى أودت بالمسلمين ميلهم إلى الترف وانتشار مجالس الأنس على غير هدى الإسلام ، وترخُّصهم الزائد فى أحكام الشريعة .

وإذا ما عُدْنا إلى العصر الحاضر وجدنا عيون المسلمين تتفتّح على جيوش الاحتلال التى تذيقهم العذاب الأليم وتبطش بكل لسان وتستبيح الحُرمات ، ولم يجد المسلمون أمامهم سوى المهادنة إن لم يكن الاستسلام ، وقامت علاقة صداقة وثيقة بين جزار الشعب اللورد كرومر وهو المندوب السامى البريطانى والشيخ محمد عبده إمام عصره . وازدادت الصداقات على حساب القيم الإسلامية الأصيلة ، واشتدت فى نفس الوقت الصراعات على السلطة والتبارى فى استرضاء المحتلّ ، وتمثّلت قمة المأساة فى تكوين حزب موالٍ للاحتلال هو حزب الأمة الذى وقف بكل ثقله ضد الشعب وعمل بكل جهده على استرضاء سلطات الاحتلال .

وفى ظل هذا الخضم العاتى برزت الدعوة إلى التحضُّر ، وكم كان بودِّنا أن تركِّز تلك الدعوة على النهضة العلمية وتأصيل القيم الإسلامية وما يستتبع ذلك كله من تقدُّم ورقيٍّ ، ولكن للأسف انصبَّت الدعوة إلى التحضُّر فى جانبها الفكرى ، ثم السلوكى بعد ذلك على المرأة .. نعم المرأة وفقط ، وصدرت النداءات وأُنشئت الجمعيات للعمل على تحرير المرأة ، واقترح العباقرة على المسلمين أن يعملوا على تخطِّى الفجوة الحضارية التى تفصلهم عن الغرب بكل الوسائل الممكنة ، وكان (العربون) أو المقدم الذى دفعه المسلمون للحاق – مجرد اللحاق – بالنهضة الأوروبية هو جسد المرأة المسلمة كدليل على الاستعداد لتحرير المرأة. ظنوا أنه كلما تعرَّى جسد المرأة شبراً اقتربنا من الحضارة الغربية مثله ،

وبمقدار عدد الأجساد العارية نكون قد حقَّقنا تقدُّماً . ومن المخزى أن جسد المرأة المسلمة قد تعرَّى ولا زلنا - كمجتمع - نرزح تحت وطأة التخلف الحضارى ، ذلك أننا قد بدأنا عصرنا الحاضر بداية خاطئة ، فقد تعجَّلنا الانهيار الحضارى قبل أن يبدأ البناء ، إذ خرجت المرأة على مقتضيات دورها ولمَّا تتضح لنا معالم التقدُّم ، ولا جَرَم تنتشر بيننا عوامل الهدم دائماً ، ذلك أننا - بخروج المرأة أو إخراجها عن دورها الفطرى - قد أنهينا المعركة الحضارية قبل أن نبدأها .

وهاكم بعض مظاهر التخلُّف :

١ - **التبعيَّة الفكرية** : وقد بدأتُ بهذه النقطة ، لأن المثقف هو الأمل فى بعث الأمة فكريًّا وقيادتها إلى الأصالة والرقىّ ، وإذا تلفَّتنا حولنا افتقدنا دعاة الأصالة والاستقلال الفكرى ، ولا يتوهمنَّ مُتوهِّمٌ أننا نفسِّر الاستقلال الفكرى بأنه الانغلاق على الموروث من كتب القدماء ، بل إن الاستقلال الفكرى هو الاستفادة الواعية من آراء الآخرين وهضمها هضماً سليماً يساعدنا على النمو الحضارى . وعلى سبيل المثال فإنه يمكن للباحث أو المثقف الأصيل أن يقرأ ويستوعب ثقافة وفكر الشرق والغرب ويستعين بما قرأ فى تأصيل قيمه واستخلاص نظرية فى مجاله يستفيد منها مجتمعه .. بل وربما يستفيد منها الشرق والغرب على السواء ، وليس شرطاً فى هذه النظرية أن تكون ترديداً لنفس المنهج السائد فى الغرب ، وقد أخطأ طه حسين حينما نقل آراء مرجليوث وغيره من المستشرقين[1] دون اعتبار لواقع الثقافة الإسلامية أو المجتمع العربى .

وتظهر التبعية الفكرية فى أوضح صورها فى مجال عالم المرأة ، فأصبح همُّ عامة المثقفين أو المفكِّرين - إن صحت تسميتهم بذلك - أن يدفعوا بالمرأة إلى الحياة الأوروبية دفعاً دونما نظر إلى قيم المجتمع المسلم وأفكاره . ولقد حضرت مناقشة دارت بين امرأة تشغل منصباً جامعيًّا وكانت مرشَّحة لمجلس الشعب ، وأحد الزملاء الأفاضل وكان هو الآخر مرشَّحاً ، وقد أعلن الزميل الفاضل أنه على استعداد لأن يتنازل ويتحوَّل إلى داعية لها ، لو أنها التزمت - كمسلمة - بالشريعة الإسلامية

---

(١) انظر : طه حسين وفكره فى ميزان الإسلام ، تأليف أنور الجندى .

والزىّ الإسلامى وتخلّصت من مظاهر التبرج ، فما كان جوابها إلّا أن قالت بالحرف الواحد تقريباً : أنا لا أفعل شيئاً بدون اقتناع . فهل مثل هذه المرأة – رغم منصبها ودرجتها العلمية – مسلمة عن اقتناع ؟

إنها – كما قلت – التبعيَّة الفكرية التى أصابت كل شىء ، وصارت أوضح ما تكون فى عالم المرأة ، والمرأة المسلمة بالذات .

٢ – **الجهل وانتشار الأمية** : ذلك أننا اهتممنا أكثر الاهتمام بأمور جانبية ، وغابت عنا أصول هامة لا يقوم المجتمع إلا بها ، ولا ينهض إلا بوجودها . فما غاية التعليم ؟ هل الغاية أن يتكدَّس الأولاد والبنات فى المدارس يتعلَّمون جانباً واحداً من جوانب العلم ، جانب يؤدِّى حتماً إلى الوظيفة وشغل المكاتب ؟ هل المطلوب من المرأة والرجل على السواء أن يكونوا مهندسين ومدرِّسين وموظفين ؟ هل هذا هو المجتمع ؟ كلا .. وإنما هناك جانب آخر هو وضع المرأة ودورها .. وعلاقتها بالرجل .. والابن والأسرة . وهذا جانب خطير لا نراه يلقى أى اهتمام ، بل على العكس يتعرَّض للطعن والهجوم ، فماذا كانت النتيجة ؟ وجدنا نصف متعلِّمة ونصف أم فى الوقت نفسه أو نصف زوجة .. وضاعت الجهود هباء ، وتعثَّر المجتمع وعاد خطوات إلى الوراء .. فلا المجال اقتصر على أهله ولا الجهود استوعبت أهله وغير أهله ، فازدادت الأمية وازدادت دائرة الجهل ، إلى جانب ما نراه من جهالة بعض المتعلِّمين أحياناً .

٣ – **الانهيار الاقتصادى المستمر** : وهذه نقطة يلمسها كل فرد فينا . وقد درجت بعض الجهات على أن تعلّق أسباب هذا الانهيار على الحروب المتتابعة التى خضناها ونخوضها ، أو على زيادة النسل ، أو غير ذلك من الأسباب . وهى – فى رأينا – أبعد ما تكون عن الحقيقة .. فقد دخلت غيرنا من الدول حروباً أقسى مما خضناه واستطاعت دائماً أن تعيد بناء نفسها ، كما حدث لألمانيا واليابان وأمريكا وانجلترا ... الخ

أما زيادة النسل فهو أسطورة تغنَّى بها بعض العاطلين من الفكر السليم ، وتُرجمت إلى إعلانات مبهمة . وغاب عن هؤلاء أن النسل فى حد ذاته أعظم ثروة

تفتخر بها أمة متحضرة . ولكن القيادة اختلت عجلتها فى يد أصحابها فألقوا الملام على الركاب وراحوا يقذفون بهم إلى الموت . وغاب عنهم أن الإنسان ليس عبئاً استهلاكيًّا فحسب بل إنه أداة إنتاجية ، فالعيب ليس فى القوة البشرية بل العيب فى ميدان آخر وهو القدرة على توجيهها[1] .

والسبب الذى نراه للانهيار يكمن فى الاختلال الواضح فى توجيه القوة البشرية ، والتداخل القاتل بين طرفى المجتمع ، مما أدَّى إلى الفوضى الاقتصادية . فلا المرأة امرأة كاملة تقوم بدورها ، ولا الرجل رجل تام يقوم بدوره ، فانتشرت الأنانية والتنافس الوضيع ، وغاب الشرف ، وماتت القيم الأصيلة لتقوم مكانها قيم متهافتة كان لها الدور الرئيسى فيما نعانيه .

٤ – **تفكُّك الأسرة والفوضى الاجتماعية** : وهذه النقطة أوضح من أن نزيد الكلام فيها أو نكرره ، ولا أدلَّ على صحته مما تعانيه الدول الأوروبية من جمود العلاقات وفتورها والإحساس بعدم الانتماء الأسرى والخروج على المجتمع والثورة عليه . ولعل مما يقلِّل من آثارها فى المجتمعات الغربية – أو يؤجِّل نتائجها – المدمِّرة أن هذه الدول لديها من الرصيد الحضارى ما تستطيع أن توازن به نفسها وتمنع – أو تؤجل – من أخطار الانهيار ، وهو ما لا يتوفر لنا ، لأننا أنهينا السباق – كما ألمحنا – قبل أن يبدأ ، فأخذنا نخرِّب واقعنا وندمِّر مقومات شخصيتنا ، واكتفينا بأصباغ لا تدل على شىء سوى الانهيار والتدهور .

وقد ينظر البعض إلى المظهر فيجد أننا نتمتع بمظاهر الترف ونسير قدماً نحو استكمال جوانبها ، فلدينا السيارات الفاخرة والثلاجات العامرة والكثير من المخترعات ، ويطمع الكثيرون فى أن تتحوَّل حياتنا إلى ما هو أفضل . ومثلنا الأعلى هو ما يراه الزائر لأى بلد أوروبى أو أمريكى ، ولكن علينا ألَّا نتوقَّف عند ذلك ،

---

(١) ليس خافياً ما يدفعه المجتمع وما يتكلفه الاقتصاد القومى فى مقابل السماح بإخراج المرأة عن دورها الطبيعى ، فإنشاء دور الحضانة كبديل للأمومة يرهق الاقتصاد ويعطِّل نواحى إنتاجية أخرى يمكن أن تُستثمر فيها الأموال . يُضاف لذلك المساهمة فى الاختناقات والأزمات مما تلعب فيها المرأة دوراً بارزاً .

لأن توقُّفنا حينئذ يعنى التخلُّف ، ذلك أن الحضارة تتمثَّل فى القيم الإنسانية العليا التى عدَّدها لنا الدِّين ، فإذا تحوَّلت الأخلاق إلى المتاحف ، وسادت الانتهازية ، وفُقدت الأُخوة فى الله ، وتراجعت الإنسانية ، فنحن آنئذٍ ننحطُّ إلى الحضيض رغم مظاهر الترف التى نراها بيننا .

ولقد كانت الأمة الإسلامية متخلِّفة فى الجانب الترف عن الأمم الغربية فى العصر الحديث ، إلا أنها كانت غنية بالجانب الثانى .. جانب القيم ، أو قل : تغلَّب الجانب الروحى على الجانب المادى فى الأمة الإسلامية فلم نخسر شيئاً ، لأن الجانب المادى يمكن تداركه بالعمل والمثابرة وحسن التخطيط ودقة التنفيذ .

وحينما أُرغمت المرأة على الخروج ودُعيت إلى التبرج بدأ انهيار فظيع فى القيم ، وتراجعت الأمة الإسلامية عن مكانتها وصارت بلا هوية . ولك أن تسأل تلك الأمَّة الآن :

لماذا تحارب إن هى حاربت ؟

وعلام تسالم إن هى سالمت ؟

وما هدفها بالضبط ؟

ولا بد أنك ستسمع إجابات منمقة ، ولكنها لا تدل على أى شىء فى النهاية إلا الضياع .. سيقال : التطوُّر والتقدُّم والنهضة وكرامة الإنسان وغير ذلك من الكلمات الحلوة ، ولكنها لا تقوم على أساس ، إذ تفرَّقت شِيَعاً كل حزب بما لديهم فرحون . فهذا يريد تقليد الغرب ، وذلك يريد تقليد الشرق ، وآخر يحاول استرضاءهما معاً .. والنتيجة تخلُّف عشرات السنين إلى الوراء .

إن الأمة الإسلامية – بعد الدعوة إلى عُرْى المرأة – تخلفت أخلاقيًّا ولم تتطور ماديًّا ، ففقدت الجانبين كليهما ، وهذا التخلف – فى كلا الجانبين – لا يحتاج إلى دليل يثبته .

فنظرة إلى واقعنا المادى يثبت لنا أننا متخلِّفون ، فلا زلنا نعتمد على الغرب فى سدِّ احتياجاتنا المعيشية ، ولينظر كل منا إلى ما يستخدمه من أدوات ليجد أنها

إما غربية لحماً ودماً ، وإما غربية نسباً وعائلة ، أى أننا لا زلنا - بعد حوالى مائتى عام منذ اتصالنا بالغرب - أذناباً وأتباعاً ، فلم تتكوَّن لنا شخصية مستقلة فى الجانب المادى ، أو قل لم نستطع أن نقف على أرجلنا .

أما فى جانب القيم فالداهية أشد ، إذ انحلَّت الأسرة ، وتمرَّدت البنت على أبيها ، واستطال الشاب على أمه ، وانهارت القيم ، فلم يَعُد المنكر هو ذلك الذى أنكره الإسلام ، وإنما المنكر هو ما لا يتفق مع حضارة الغرب حتى ولو كان أصلاً من أصول الإسلام ، إذ لم يعد الإسلام مقياساً لأن الزمن تطوَّر ، واستشرى الكذب والنفاق تحت اسم الدبلوماسية (والإتيكيت) وصار هناك قانون التعامل اللائق بالنساء فى المجتمعات بتقبيل يد المرأة ودعوتها للرقص أو تقبيل الخدين والخروج للنزهة بعيداً عن الأعين ، وقد نجحت الدعايات المسمومة فى أن تقنع الناس بأنه لا حرج فى ذلك ، دون أن يدركوا أنها مجرد شِرَاكٍ « فخاخ » لصيد المجتمع المسلم وذبحه .

إنها شهوة العُرى التى انتشرت فى المجتمع ، فلم يعد للحياء سبيل فى النفوس ، فتعرَّى المجتمع من كل خُلُق بعد أن تعرَّت الأجساد .

وعلينا أن نبادر بعلاج المجتمع من هذا الوباء ، ولن يكون علاج إلا إذا رتَّبناه - على مقدماته الشرعية ، ومن أهم تلك المقدمات عودة المرأة إلى دورها الفطرى المرسوم لها ، فطرة وشريعة .

* * *

الحضارة المادية والمرأة

في استعراضنا لمراحل الحضارة الإنسانية وجدنا أن المرأة لم تتجاوز مكانتها المرسومة بصرف النظر عن بعض الحالات النادرة والتي تُعَدُّ علامة مرض ، فقد انتهى حكم كليوباترا في مصر إلى تبعيتها للدولة الرومانية ، وكان حكم شجرةالدر علامة انهيار خطير كان جديراً أن يؤدِّى إلى كارثة أثناء الخطرين التتارى والصليبى . وفيما عدا هذه الحالات النادرة وأمثالها فإن المرأة دائماً كانت دافعاً قويًا للتقدُّم ولم تكن عائقاً له ، فكانت نعم المعينة ، والمشيرة والحافظة ، ولولا ذلك – كما قلنا – لمَا تقدَّمنا خطوة إلى الأمام ، ولَظلَّت الإنسانية في ضلالٍ وتيهٍ .

ولقد راودنى – بل ألحَّ على خاطرى – هذا السؤال :

لماذا تصرُّ الحضارة المادية الحديثة على إخراج المرأة عن دورها الفطرى الطبيعى ؟

وهذا السؤال لو طرحناه على المبهورين ببريق الغرب لسمعنا منهم الكثير من الأعاجيب ، كأن ينسب أحدهم الأمر إلى زيادة الوعى ، وآخر إلى طبيعة التقدم وضرورات المرحلة .. وثالث ورابع .. وليقل كلٌّ ما يشاء ولتنتشر الأباطيل في كل مكان ، فانتشار الباطل لا يخرجه عن كونه باطلاً .. والشرور لا تحوِّلها الكثرة إلى خير .. فالباطل باطل وإن انتشر والشر شر وإن كثر .

ولا ينكر أحد أن الحضارة الغربية الحديثة قد ارتبطت ارتباطاً عضويًا بالثورة على الكنيسة في نهاية العصور الوسطى ، فكانت تلك الثورة شهادة ميلاد الطفل

(الحضارة الغربية) ، وتربّى الطفل الجديد فى أحضان الفكر البشرى بعيداً عن الارتباط بالدين (أى دين) ووضحت اليد البشرية وضوحاً كبيراً بالاختراعات الكثيرة المتتالية ممّا عمّق فى نفوس أصحاب الحضارة روح الابتعاد عن الله ، وراح البشر – من منطلق تذليل قوانين المادة – يصوغون للحضارة المادية قوالبها الفكرية التى جاءت أبعد ما تكون عن أى شريعة ، بل – على العكس – جاءت حرباً على الشرائع السماوية ، ولِمَ لا وقد وُلدت الحضارة – كما قلنا – نتيجة للثورة على الرمز الدينى فى الغرب (الكنيسة) .. وبالطبع لن يكون الإسلام أعزّ على هؤلاء من دينهم الذى ثاروا عليه .

وارتبطت الحضارة الحديثة فيما يخصُّنا – نحن المسلمين – بما يأتى :

أ – الاستعمار :

وقد تمكّن الاستعمار الغربى من كافة الدول الإسلامية تقريباً ، واستولى على مقدراتها عشرات السنين جاوزت القرن من الزمان فى بعض البلدان ، ونظراً لاتساع الهوة بين البلاد الاستعمارية والبلاد الإسلامية فإن الاستعمار قد استطاع أن يشكّل الحياة فى هذه البلاد الضعيفة ، فازدادت فقراً وجهلاً ، ولم يُتح العلم إلا لقلة نادرة تلقّت العلوم فى العواصم الاستعمارية ، فتحوّلت هذه القلة إلى جراثيم تنقل العدوى ، حتى انتشرت بيننا الأمراض الاجتماعية الخطيرة . ويكفيك أن تعلم أن من الأمور المحزنة والمخزية فى آنٍ أن جماهير غفيرة من مثقفينا صارت تنتقص من تراثها وتتهرّب من مسئولياتها التاريخية ، بل وتتخلّى عن دورها الطبيعى ، فتكتب أو تنطق بما يمليه عليها تبعيتها ، فكأن تلك الجماهير المثقفة صارت الناطق الرسمى أو محطات البثّ التقليدى لما يريده ساسة العواصم الاستعمارية . ونظراً لكثرة هؤلاء الناطقين أصبح الأمر وكأنه الأساس وما سواه شذوذ . وهكذا صارت ألسنة الكثيرين نافرة عن الحق ، وصارت الحقيقة غريبة عن أهلها .

ب – حركة الاستشراق :

وهى حركة ارتبطت بالاستعمار أول ما نشأت ، إذ كانت وسيلة من وسائله لإحكام السيطرة الثقافية على الشرق . وفى هذه الحركة يتخصّص جماعة بدراسة

لغات الشرق وإجادتها ، ثم العكوف على التراث المكتوب بهذه اللغة أو تلك ودراسته ونشره والتعليق عليه ، ولا نعدم بين هؤلاء أناساً موضوعيين نشروا الحقائق واعترفوا بها ، إلا أن غالبيتهم كانوا متعصِّبين ضد الإسلام والمسلمين ، فنشروا الأكاذيب وروَّجوا للآراء الضعيفة وهاجموا الإسلام فى كل ميدان .. هاجموا شخص النبى ﷺ وأزواجه ، وتعدُّد الزوجات فى الإسلام ، وكان للمرأة المسلمة النصيب الأكبر من هذا الهجوم والتشكيك فى مكانتها الاجتماعية . وقد حرص المستشرقون على أن يقدِّموا هذا الهجوم وتلك الشكوك فى إطار مصطنع من العلمية والموضوعية مما أخذ بألباب أوائل المثقفين المسلمين حيث كانوا حينئذ فى دور الرضاعة الثقافية ، فشبُّوا على مائدة الأفكار الغربية ، وعاشوا – بل نذروا أنفسهم – لكل ما هو غريب على الإسلام .. دعوا له ، ونادوا به ، وتعصبوا له .

جـ – الحركة الصهيونية :

عقب استقرار الاستعمار وتمام خضوع الدول الإسلامية بدأت تظهر فى أوروبا حركة إرهاب فكرى هى الحركة الصهيونية ، وهى حركة تجمع الرأسمال اليهودى للظهور والتأثير السافر على المسرح العالمى . وفى أواخر القرن التاسع عشر بدأت المؤتمرات الصهيونية فى الانعقاد ، وتحرَّك اليهود لاستثمار إمكانياتهم المادية وتحريك مساعديهم فى جميع عواصم أوروبا ، وقامت الحركة الصهيونية على ما يأتى :

١ – تخريب الأفكار

٢ – إشاعة الفضائح والتهديد بها .

٣ – الإرهاب الدموى بالاغتيالات .

٤ – الخيانات .

وغير ذلك من الوسائل البعيدة عن أى خلق . وتُعتبر المرأة وسيلةً أساسية لتنفيذ أهداف الصهيونية ، وقد استعانت بها فى كثير من المجالات السرية ، كما رأينا فى فضائح الماسونية والروتارى ، والتى تتحدَّث عنها الصحف بين الحين والحين ثم يُسْدَل عليها ستار كثيف من النسيان المتعمَّد المدروس .

د - الشيوعية :

وتأتى الطامة الكبرى فى الشيوعية التى أنكرت الأديان وتبنت قيماً جديدة تعتمد على المادية البحتة ، وابتكرت أخلاقاً خاصة بها ونظريات ما أنزل الله بها من سلطان .

فى هذه الأجواء الفاسدة والعقليات المنحرفة كان طبيعيًّا أن يتولَّد الشعور بكراهية الأسرة التى حرصت الأديان - وبخاصة الإسلام - على حمايتها ، فالمرأة يجب أن تصير كالرجل . فى مثل هذا الجو العقيم الذى ولَّدته الحضارة المادية نبت القول بتحرير المرأة ، وجرت المرأة إلى معركة مفتعلة فماذا ننتظر منها ؟ هل هى رمز للتطور أو الوعى أو الثقافة ؟ كلا ولكنها مظهر من مظاهر الانهيار الثقافى والتحرر الحضارى الذى شاع فى عصرنا الحديث . نعوذ بالله من الخذلان فى الدنيا والآخرة .

وكان من آثار ذلك أن تهيَّأت الظروف للاقتناع بتحرُّر المرأة الذى بدأ - كغيره من الدعوات الهدَّامة كالصهيونية والشيوعية والاستعمار - بصورة بريئة جدًّا . إذ لا بد أن تشارك المرأة الرجل فى الإنتاج والتعمير ، ولا بد - من أجل ذلك - أن تتعلَّم .

كل هذا جيد وأكثر من جيد ، ولكن السيء فى الأمر ظهر فى تلك الدعوات التى تعمل على فكِّ ارتباط المرأة ببيتها وزوجها وأولادها ، وهى دعوات ضارية ولكنها تُقدَّم بطريق شيطانى ناعم الملمس إلا أنه قاتل ، حيث لجأ الداعون إلى الاستدراج على مراحل متطاولة تطاول الزمن .. وحينما تستقر مرحلة يبدأ الداعون مرحلة جديدة .. وقد أمنوا على المرحلة السابقة عملاً بسياسة الأمر الواقع الذى يصعب - إن لم يستحل - تغييره .

الدعوة للتعليم .. نعم واستقرت المرحلة

الدعوة للعمل .. نعم واستقرت المرحلة

تنازل الزوج عن مكانته فالبيت والحياة تفاهم وتعاون .. نعم واستقرت المرحلة .

لا بد أن يتعوَّد الزوج على الأمومة فيتعاون فى تربية الأولاد ، ويعدُّ الرضعة وغيرها للطفل .. نعم واستقرت المرحلة .

وما لبثت القضايا أن تشعَّبت وتداخلت حتى صار أمر المرأة فى المجتمع كالغابة لا يدرى أحد مسالكها ، فرأينا :

أ – وجوب تحرُّر المرأة من أمومتها ، وقد اتخذ ذلك الأمر مظهرين :

أولهما : الامتناع عن الإنجاب فترة طالت أم قصرت تحت مختلف الدعاوى : من إتمام عش الزوجية أو تجهيزه أو التمتع بالحياة الهادئة وغير ذلك .

الثانى : البحث عن حضانات كبدائل للأم .

وفى كل ذلك نلمس إهدار كرامة الإنسان ، فالطفولة وهى أغلى ما فى الوجود تصير عبئاً على الأسرة ، والأسرة تتفرغ لأى شيء إلا بناء الإنسان ورعايته .. فما قيمة الإنسان إذن ؟ وأى انتماء يشعر به الطفل فى قطيع من الأطفال تضمُّهم حيطان جامدة ، وترعاهم موظفة أو مجموعة ممرضات ؟

ب – تشجيع الشذوذ الجنسى ، وهو ما أُبيح بقوانين منظِّمة له فى دول أوروبا وأمريكا . وبهذا يستغنى بعض الرجال عن النساء وبعض النساء عن الرجال ، وفى ذلك تخريب أى تخريب ، لأن آثار الشواذ لا تنحصر فيهم بل تتعدَّاهم إلى المجتمع ، فهم وباء قاتل وخاصة إذا تحوَّل الأمر عندهم إلى تجارة .

جـ – لفت الأنظار بدعايات ضخمة إلى أطفال الأنابيب ، ربما تمهيداً لتعميم التلقيح الصناعى والاستغناء عن الأبوَّة الشرعية . وقد رأينا أنه مع كل حملة إعلامية تصاحب طفل الأنابيب يتوجَّه السؤال إلى بعض رجال الدين حتى يكون للموضوع سنده فيما بعد .. وقتها ربما يقولون : لقد قال الشيخ فلان كذا وكذا وهو من كبار المجتهدين فى زمانه .

د – لعله سيصل الأمر فيما بعد إلى الربط بين الحد من النسل بالوسائل الطبيعية واستجلاب النسل بالوسائل الصناعية أيضاً « أطفال الأنابيب » وذلك للتحكُّم فى تفريخ الأطفال وتحويل المجتمع الآدمى إلى مزارع أقرب إلى مزارع تفريخ الدواجن ، ليتحوَّل البشر إلى همل يتحكَّم فيهم أهل الهوى .

* * *

الإسلام .. والمرأة

من أشد الأمور خطراً على عقائد الناس اليوم أن بعض المتحدِّثين باسم الإسلام لا يتناولون دينهم جملة ، بل ينشرون الفتوى مبتورة عن موضوعها العام ، فيتلقَّفها أهل البدع ويذيعونها دون أن يعبأوا بأية جوانب أخرى ، وبهذا يخضعون الإسلام للمجتمع .

ويبدو أن فريقاً من المتحدِّثين باسم الإسلام قد يئسوا من إخضاع المجتمع للإسلام ، فبدءوا يفصِّلون من الإسلام رقاعاً على مقدار مناسبات المجتمع ، إذ عزَّ عليهم أن تفوت المناسبات دون أن يجدوا لها من الإسلام سنداً ، فباتوا يلهثون خلف المحدثات ينوهون بها ويبرزون قيمتها مستعينين فى ذلك بما حصَّلوا فى معاهدهم أو قراءاتهم عن الإسلام ، وأصبح الإسلام على أيدى هؤلاء مصفِّقاً مادحاً لكل ما هو مستحدث فى دنيا الناس وليس ذلك بالطبع موقعه . ولأضرب مثلاً لذلك بالحديث عن المرأة وإقحام الإسلام - أحياناً - لنصرة قضيتها ثم تنحيته وإبعاده - أحياناً أخرى - حين يتعارض منطوق الإسلام مع مراد أهل المرأة وأنصار قضيتها .

نقرأ أحياناً آراءً متعلِّقة بحقوق المرأة ومساواتها بالرجل ، فيسارع الأكثرون إلى الإسلام - نصوصه وأحكامه - فيستدلُّون منه على أن للمرأة حق العمل والخروج إلى الميادين المختلفة . هذا إذا كان النقاش حول أحقيَّة المرأة فى العمل ،

فإذا انتقل الحديث إلى مظهر المرأة ووجوب احتشامها خرست الألسنة وأُغلقت الأبواب دون الإسلام – نصوصه وأحكامه – فلا استدلال بها ولا استنارة بهديها ، وإنما يُفتح الباب حينئذ لرجال الأزياء وموسوعات بيوتها فى مختلف أنحاء العالم .

والغريب أن الحديث فى الأمرين عن موضوع واحد هو المرأة ، إلا أننا نرى التشريعات الوضعية تحمى الجانب الأول : حرية خروج المرأة ، وتَسنُّ القوانين الكفيلة بذلك ، على حين تغفل الجانب الثانى تماماً ، ومما يثير الدهشة أنه لا يوجد نص صريح واحد – أقول : نص صريح – فى القرآن أو السنة يتحدث عن عمل المرأة وإعطائها حريتها ومساواتها بالرجل (أى اندماجها فى الرجل) فى حين أن النصوص صريحة وقاطعة فى الجانب الثانى : مظهر المرأة وعفتها .

ونعطى مثالاً على الاستدلال المنقوص . فمن جعل الإسلام فى موقف المصفِّق استدلَّ على مساواة المرأة بالرجل أو اندماجها فيه بقوله تعالى : ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُم مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ** ... ﴾ (آل عمران : ١٩٥)

وهذا استنباط ، لأن الحديث عن جزاء يوم القيامة ، ولعمرى إن من أراد أن يستنبط مساواة الإنسان بالبهائم فإنه يستطيع ذلك إذا تكلَّف فى فهم حديث النبى ﷺ الذى معناه : « إن الله لَيقتصُّ من الشاة القرناء للشاة الجلحاء – أى التى بلا قرون » فإذا صحَّ القصاص فى عالم الأغنام فلا مانع من وجود المساواة للمغرمين بأحاديث المساواة .

إن دعاة المساواة (وهم دعاة التمزيق لا المساواة) يقولون إن الحديث فى الآية عن الذكر والأنثى ، ويغيب عنهم أن الحديث فى الآية عن الجزاء يوم القيامة لا عن وظائف المرأة أو عن الميادين التى كانت حكراً على الرجل واقتحمتها المرأة ، بل ويتناسون آية القوامة : ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ** ... ﴾ (النساء : ٣٤) وهى آية عامة والحديث فيها عام ، ويتناسون كذلك آية التفضيل : ﴿ **وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ... ﴾ (البقرة : ٢٢٨) لأنها آيات على غير هوى دعاة التمزيق .

إن من الخطر أن يسمح الدعاة والقادة لأنفسهم بالتصرُّف فى كتاب الله ، فيأخذون منه ما هو على هواهم ويتركون الباق ، أو يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .

والحديث عن المرأة من خلال الإسلام يجب أن يكون حديثاً متكاملاً ، فإن للمرأة أن تعمل إذا اقتضت الضرورة القصوى ذلك ، ولها أن تساعد فى مجالات الرجال ما قصر الرجال فى تلك المجالات ، ويجب حينئذ أن تلتزم بما فرضه الإسلام وهو تحاشى الفتنة ، فإن تعذَّر تحاشى هذه الفتنة حُرِّم عليها الخروج للعمل الضرورى .

ذلك أن سفور المرأة حرام قطعاً بنص القرآن ، واختلاطها بالرجال الأجانب عنها مع هذا السفور حرام حرام ، بل إن كشف الوجه حرام فى حالة ترجيح الفتنة مباح فى حالة أمنها . فإذا كان السفور والاختلاط هما السبيل إلى تحقيق العمل للمرأة كان العمل حراماً قطعاً لأنه لا يتوصَّل بالحرام إلى الحلال ، كرجل أراد أن يتصدَّق فسرق ، أو رجل فى سفر سرق ماء الشرب من راحلة غيره ليتوضأ منه .

معنى ذلك أن عمل المرأة شرعاً لا بد أن يتوافر له ظرفان :

الأول : الضرورة التى تلجئها للعمل سدًّا لحاجة .

الثانى : أمْن الفتنة بترجيح البُعْد عنها كأن لا تضطر إلى كشف شىء من عورتها أو زينتها ، أو لا تكون فتنة لغيرها ، فإن خافت الفتنة حُرِّم خروجها للعمل مهما كان ضرورة ، لأن ضرر الفتنة أشد من ضرر الحاجة ، والحاجة يسدُّها المجتمع ، وولى الأمر مسئول عنها حينئذٍ .

* * *

فلسفة العمل وقضية الحقوق

إن معظم الشعوب الإسلامية الآن فى حالة لا تسرُّ ، فهى متخاذلة بين التبعيَّة والتخلُّف . ولقد بلغ من قصر النظر عند بعض أدعياء الفكر أن توهَّموا أن لهذه الحالة أسباباً بعيدة جدًّا ، وراح كل منهم يضرب على وتر ، بعضهم زعم أن سبب التخلُّف هو التمسُّك بالعربية ولا بد - فى رأيه - من تركها والاستعاضة عنها باللاتينية ، وراح بعضهم يضرب على وتر المرأة وقضية تحريرها ، وثالث ورابع .. حتى بلغ الأمر إلى حد غير معقول وغير مفهوم حين وُضع الإسلام موضع الاتهام بل وأُعلن الحرب عليه من أبنائه أحياناً .

وسنقصر حديثنا هنا عن المرأة وقضية تحريرها ، وسيكون حديثنا عنه بمثابة نقاط أساسية :

١ - إننا لا نعانى من نقص اليد العاملة بل على العكس تعانى معظم الشعوب الإسلامية من مرض البطالة السافرة والمقنَّعة . وعلى هذا فخروج المرأة وفى ظروفنا هذه يُعتبر تعقيداً للمشاكل التى يعانى منها المجتمع وليس إسهاماً فى حلها كما يدَّعى البعض .

٢ - إن أساس المشكلة التى نعانى منها يَكْمُنُ فى التخلُّف الإنتاجى والعلمى ، وخروج المرأة يساعد على تعميق التخلف الإنتاجى ، لأن خروجها ضمان

للزحف الاستهلاكى فى المجتمع ، مما يعرقل بصورة أو بأخرى محاولات التقدم العلمى بالتبعية .

٣ - حينما يحدث صراع بين الأفكار التى تنادى بالزحف المنظَّم للمرأة خارج البيت وبين الأفكار الأخرى المعارضة فإنه يحدث التفكُّك المطلوب والذى تستفيد به تيارات معينة تبغى السلطان والنفوذ ، خاصة وأن الأفكار المعارضة تستند غالباً إلى منبع إسلامى .

٤ - ربما تحاول الأفكار الداعية إلى خروج المرأة أن تجد سنداً دينيًّا لتضمن لنفسها تقدُّماً فى المعركة فتلجأ إلى نصوص وآثار تبترها من سياقها وتغفل النصوص الأخرى .

٥ - إن الدعوة إلى خروج المرأة وسيلة لتحقيق أهداف أكثر أهمية ، منها :

أ - أن ينفصل النشء عن مكونات الأسرة (أمه وأبيه) فيتربَّى ويكبر دون أن يكبر معه الإحساس بالانتماء وبذلك يسهل عليه التفريط فى أى شىء .

ب - تحدِّى المفاهيم الاجتماعية الإسلامية والثورة عليها مما يساعد على إضعاف الإسلام فى النفوس تمهيداً للقضاء عليه .

جـ - أن تكون المرأة أداةً طيِّعة فى يد محبِّى السلطة ، ما دام سيضمن لها الخروج فى أمان فلتضمن له الكرسى الذى يجلس عليه ، وطبعاً مع الاستعانة بمَنْ يُتاح من الرجال .

د - وأخيراً - وليس آخراً - ضمان الإبقاء على حالة التخلف الحضارى فى المجتمعات الإسلامية بشغلها بقضايا جانبية ومعارك وهمية .

٦ - إن المساواة الحقيقية لا تتمثَّل فى دخول المرأة مجالات الرجل وإنما تتمثَّل فى توفير الإمكانيات المختلفة والتى تضمن أداء المرأة لدورها فى المجتمع أداء كاملاً :

أ - الدراسات التربوية الكاملة .

ب - الوسائل التعليمية المختلفة .

جـ – ممارسة شئون البيت .

د – المساهمة فى رعاية المرضى .

وغير ذلك مما يضمن للمجتمع الإسلامى جوًّا صحيًا حتى يتطور إلى الأفضل .

٧ – ولقد ضمن الإسلام للمرأة حقوقها فى إطار المجتمع الإسلامى :

أ – حرية اختيار الزوج .

ب – حرية التملُّك والتصرُّف فيما تملك .

جـ – ضمان الأمن لها فى حالتى الطلاق أو موت الزوج .

د – الجانب الأكبر من رعاية الأبناء .

وغير ذلك مما ذكرناه فى مكان آخر .

٨ – ويجدر بنا أن نشير هنا إلى بعض الأسباب التى تجعل المرأة تحس بالظلم فى مجتمعاتنا :

أ – أن المرأة تعيش فى مجتمع نصيبه ضئيل من تطبيق القانون الإسلامى ، ولهذا السبب كثر المتسوِّلون وتعدَّدت فنون الجريمة ، وأكثر المجالات التى تُطبَّق فيها القانون الإسلامى هى مجالات الأحوال الشخصية والميراث ، أما الجوانب الأخرى فيكاد ينعدم التطبيق الإسلامى فيها ، مما جعل المرأة فى حالة بالغة السوء حيث فقدت حرياتها المكفولة لها مما جعلها تحس أن المجتمع غير حريص إلا على تكبيل حريتها ، فطبِّق عليها قوانين الأحوال الشخصية والميراث ، وحرمها من تطبيق القوانين الأخرى ، وهكذا اندفعت المرأة إلى الخروج على هذا الطوق المضروب حول عنقها متشبِّهة بالمرأة الأوروبية ، لأن المرأة المسلمة فى المجتمع المسلم لم تختلف حالتها عن زميلتها الأوروبية فى المجتمع غير المسلم حين بدأت هذه الزحف من أجل الحرية وما يزعمون من مساواة .

ب – إهدار كرامة المرأة على يد الرجل وإبطال الآيات القرآنية الداعية

إلى المحافظة على كرامة المرأة أو تعطيل هذه الآيات كقوله تعالى :
﴿ فإنْ أطَعْنَكُم فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾ (سورة النساء : ٣٤)

جـ - الاستخدام السيء لحق الطلاق وحق تعدُّد الزوجات ، مما جعل إطلاق هذه الحقوق فى نظر البعض يمثِّل جريمة فى حق المجتمع . علماً بأن هذين الحقين ليسا سوى علاج أو دواء لوقت الحاجة القصوى ، واستخدام العلاج بلا حاجة يضر ولا ينفع ، مما يدعونا إلى تقييد هذه الحقوق دون إبطالها .

ونعود فنتساءل : هل من حق المرأة أن تعمل أم أن الإسلام يحرِّم عمل المرأة ؟

والحقيقة أن القضية بهذه الصورة قد طُرحت طرحاً خاطئاً على الصعيد الإعلامى ، ذلك أن دعاة التحرُّر المزعوم لا يهتمون بالموضوعية فى البحث ، وإنما التفُّوا بدثار التحرر فحكموه فى كل شىء ، ولم يعد لديهم مجال لغيره ، فألبسوا الباطل ثوب الحق وشوَّشوا الأمر على البسطاء الذين يستقون معلوماتهم من الصحف والمجلات وبعض الكتيبات القاصرة التى لا تقدِّم شيئاً ذا بال إلا الإثارة .

والتصوُّر الذى طبعوه ولا زالوا يؤكِّدون عليه فى أذهان الناس أن المرأة قبل الدعوة المزعومة كانت رهينة المحبسين : محبس أنوثتها ومحبس بيتها بنتاً وزوجة وأمًّا وأختاً .. وهم فى صراعهم الشرس ضد القيم العميقة فى المجتمع يحاولون إظهار أنفسهم بمظهر المخلصين المغيثين للمرأة ، يُقيلون عثرتها ويدفعونها دفعاً إلى حياة النور والحرية ، فهى نصف المجتمع المعطل ، والذى لا يمكن أن يتطوَّر المجتمع دون مشاركته الإيجابية . وتستمر المصيدة لتنتهى إلى ضرورة ثورة المرأة على واقعها الجامد المتخلف . وتتابعت الخطوط وتداخلت وكان لتشابكها أثر كبير فى إشاعة الغموض حول القضية ، حيث تاه الناس وظنوا الباطل حقًّا والحق باطلاً ، وترسَّخ عندهم الظن بأن المرأة السافرة العارية هى الحقيقة التى لم تعد قابلة للمناقشة .. هى الأمر الواقع .

ولنا أن نتساءل : هل كانت المرأة - حقًّا - طاقة معطَّلة لا تساهم بدور ملموس فى الحياة العامة ؟ وهل خلت الشوارع وميادين العمل بل وميادين الجهاد

من وجود المرأة ؟ والجواب : كلا لم يحدث هذا مطلقاً .. كانت المرأة دائماً : فى الحقل وفى السوق بل وخلف الجيوش ، لم تغب المرأة أبداً عن ميادين الحياة سنداً لأسرتها ودعامة لبيتها ، ولكننا لا نذكر أنه ثارت حول المرأة أية شكوك ولم يرتفع صوت واحد يمنع المرأة من الخروج مع زوجها أو خلف أبنائها للحقل أو السوق والتجارة ، أو حتى بعض الصناعات حسب الحالة العامة للمجتمع .

حدث هذا ابتداء من صدر الإسلام حتى عصر الأتراك ، لم يحدث فى مجتمع إسلامى ما حدث للمرأة فى أوروبا .. وقصص العصور الوسطى فى أوروبا وأحزمة العفَّة مشهورة ومعروفة .

وكم رأينا رجلاً يذهب إلى السوق ويحمل إلى بيته ما يحتاج إليه ! وآخرَ فى خدمة أهله لعارض ما ! ولم تُثرْ حينئذٍ قضية الفوارق بين الجنسين ، أو مسألة تنازل الرجل عن بعض مطالبه كرجل .

وهكذا كان المجتمع فى مساره الطبيعى .. الكل فى مجاله .. والكل فى تعاون حسبما تقتضيه البيئة من مشاركة ضرورية .

فإذا صح ذلك – وهو صحيح تثبته المشاهدات وتجارب الريف بل والمدن قبل تيار الثورة الاستعمارية فى عالم المرأة – فإن دعاة ما يسمُّونه التحرُّر تجاوزوا كل هذا وخلقوا قضية غير موجودة ، فهم لا يعجبهم أن تتوافق الأسرة مع ظروف المجتمع والبيئة ؛ تكيِّف نفسها وتبحث عن سعادتها ، فكل هذا ضد شهواتهم وأهوائهم . فالمرأة فى منطقهم لا يجوز أن تبقى خالصة لزوجها ، والرجل لا ينبغى أن تتهيَّأ له ظروف الإخلاص لزوجته ، بل لا بد أن تعمَّ الفوضى أركان المجتمع ، لا بد من إرغام المرأة على الخروج بتزيين الأمور لها .. فما الذى يجبرها على الاكتفاء ببيتها وأسرتها وما يتصل بها من أعمال ؟ ولماذا تظل فى دائرة محدودة ؟ إنها لا بد أن تخرج على تلك الدائرة .. لا بد أن تعمل (وهى لم تكن عاطلة) .. لا بد أن تغترب عن بيتها وأولادها بل والبلد التى عاشت فيه فتسافر .

وإذا سألنا عن أطفالها كانت الإجابة : لابد من توفير الحضانة .

وإذا سألنا عن زوجها كانت الإجابة : إنه يقبض المقابل فللمرأة راتبها الذى تساهم به فى البيت .

وإذا سألنا عن الأولاد الذين كبروا والبنات كانت الإجابة : لا بد أن يتحمَّلوا مسئوليتهم ويتعوَّدوا على الحياة .

وإذا سألنا – أخيراً – عن التكامل بين الرجل والمرأة فى البناء الحضارى قيل لنا : كفكفوا دموعكم وتقبَّلوا الأمر ، فلا تكامل الآن وإنما هو وحدة واتحاد ، فالمرأة قد انتقلت إلى ميدان الرجل .. وبقى ميدانها خالياً .. وننظر حولنا فلا نجد إلا الانهيار فى كل شىء : فى الأخلاقيات ، فى القيم ، فى الاقتصاد ، فى التحضر .

ولعل منا من يريد أن يسأل : فما الفرق بين الماضى والحاضر ؟

والجواب : أن المرأة كانت فى الماضى تخرج وتساهم وتشارك – كما أشرنا – دون خروج على الطبيعة أو تجاوز الحدود . أما فى الحاضر فالأمر قد تعدَّى حدود الطبيعة وتحوَّل إلى مؤامرة لإرغام المرأة على الخروج بل والثورة على طبيعتها ، والتمرُّد على دورها الأصيل فى المجتمع . وإذا كان خروج المرأة فى الماضى قد اعتمد على الحاجات الفعلية للعمل والبناء والإنتاج ، فإن إخراج المرأة اليوم هدفه هدم المجتمع وتوجيهه إلى الانحلال .

* * *

التنظيم المزعوم والضياع

المرأة هي باب من أبواب الشيطان ، وهي وسيلته للمكر بالإنسان . وهذا ليس افتراء أو ادّعاء ، فقد قال رسول الله ﷺ : « ما تركتُ فتنةً بعدى أضرَّ على الرجال من النساء » .

فبسببها يشتد الصراع ، وبسببها يزلُّ الإنسان فيقع فى الجريمة .

وقد ركب الاستعمار الحديث حصان المرأة واستغلَّه أبرع استغلال ، حيث قضى به على هوية المجتمعات الإسلامية ، فكانت المرأة معولاً جباراً حطَّم قدسية النص الإلهى فى القرآن ، وقضى على احترام النص الشرعى المتمثّل فى أقوال النبى ﷺ وأعماله وسننه .

لقد أخرج الاستعمار الفكرى المرأة عن دورها ، فازدادت البلاد تخلُّفاً وهمجية ، واشتدَّت وطأة الحاجة ، وأُحكمت الأغلال فى الأعناق .

وحتى لا نستطرد كثيراً وراء العبارات البراقة التى قد يظن البعض أنها حيل لفظية وجمل فارغة لا مضمون لها - نودّ أن نوضّح حقيقة هامة قد يغترُّ بها بعض الأدعياء أو المحسوبين على الفكر ؛ ذلك أن المرأة فى الغرب خرجت إلى الشارع وتبرَّجت قبل أن تخرج المرأة فى الشرق الإسلامى بسنين ، ومع ذلك فالغرب متقدِّم متمكِّن والشرق مزعزع متأخِّر .

وقد يظن البعض - نتيجة هذه المقارنة الساذجة - أن خروج المرأة لا شأن له بالتأخُّر فى الشرق . ونقول لهؤلاء : إن المرأة فى الغرب لم تخرج أولاً بل تأخَّر خروجها عن النهضة والتطور ، فقد تقدَّم الغرب واخترع وتطوَّر ، وبعدها خرجت المرأة . أما عندنا فلم نعرف عن التقدّم سوى اسمه ، ولا عن المخترعات إلا قشورها وزيفها . أما المرأة فقد بكَّرت بالخروج قبل أن تتعمَّق عندنا أى قيمة من قيم الاختراع والتقدم . فهم بدءوا بالقوة وساروا فيه ونحن بدأنا بالضعف وأتقنا جوانبه ، وهم بدءوا بالبناء ونحن بدأنا بالهدم . وهكذا ظهر الفرق بين انهيارنا وتفوقهم .

ونعود بعد ذلك إلى خروج المرأة الذى تحوَّل إلى مرض عضال ينخر فى عظام أمتنا الذبيح .

فقد ضربت عرض الحائط بآيات القرآن التى تأمر بالحجاب وتحضُّ على العفة وتأمر بالقوامة . وتداعت الأمور ، وصرنا نبحث عن القيم فى الأسرة والشارع والدواوين ، ولا نجد إلا النَّزْر اليسير الذى لا تستقيم به حياة ، وبكينا أو تباكينا ، ونسينا أننا قتلنا القتيل وبكيناه ، وأضعنا الحق ثم افتقدناه .

وتكملة للحلقة المحكمة ، وتضييقاً للخناق لقتل البقية الباقية من مظاهر الحيوية فى مجتمعنا ، تأتى الدعوة الغاشمة إلى محاربة النسل تحت اسم التنظيم أو التحديد .. من أجل أسرة صغيرة .. هى فى زعمهم أسرة المستقبل .

وتغلَّفت هذه الدعوة بأغلفة براقة أقرب إلى الأوراق المذهَّبة أو المفضضة المزخرفة التى تخدع الأطفال ولا يلبثون أن يلقوا بها فى صناديق القمامة :

- من أجل رفع مستوى المعيشة .
- من أجل الرفاهية .
- من أجل حماية صحة الأم .
- من أجل حماية جيب الأب .
- من أجل مكان فى المدرسة .
- من أجل خطة التنمية .
- من أجل الوظيفة والفرصة المتاحة .

وهذه كلها أغلفة برَّاقة للسموم التى يتجرَّعها المجتمع المسلم ، فالقوة البشرية مطلوبة لتعمير جوانب الحياة : من زراعة وصناعة وتجارة وعمالة فنية وغير فنية ، وهذه القوة مطلوبة حتى يصير المجتمع قويًّا معتمداً على نفسه ، يكتفى ف مطالبه الأساسية ولا يمدُّ يده طالباً اللقمة من يد الآخرين . ثم يقوم بالتصنيع .. وذلك يؤدى به إلى العمل والابتكار فيتقدَّم ويرق .

وإذا كانت بعض الحكومات عاجزة عن تشغيل القوة البشرية وتوجيهها فالعيب فى قدرات هذه الحكومة ونواياها ، مثل الغنى الذى يعجز عن توظيف ثروته حتى استكثرها وأخذ يحرقها .

إن العمل أو فرصة العمل ليست وظيفة فى مكتب أو مشاركة فى أرباح بنك من البنوك ، ولكن العمل منه اليدوى والميكانيكى والزراعى والصناعى والتجارى .

وعندما قال النبى ﷺ : « مَنْ أحيا مواتاً فهو له » فقد فتح باب التعمير واسعاً أمام كل قادر . ثم قال : « وليس لمُحتكرٍ حقٌّ بعد ثلاثٍ » أى من أخذ أرضاً وبنى فوقها سوراً تمهيداً لتعميرها فله فرصة ثلاث سنوات يسقط حقه بعد ذلك . ودعا النبى ﷺ إلى الغرس حتى أنه « لو قامت القيامة وفى يد أحدكم فَسِيلةٌ فإن استطاع أن يغرسها فليغرسها » .

وهكذا تسقط دعاوى الفرص الوظيفية وفرص العمل .

أما ادعاءات أسرة المستقبل والأسرة الصغيرة التى تضمن حياة أفضل فهى أكذب الادعاءات ، وأوضح مثال على الخديعة والضلال الذى يُساق إليه المسلم . فهل تعلم ما معنى الأسرة الصغيرة ؟

- معناه أسرة لا تضع الموت فى حسابها .
- معناه أسرة تسعى إلى التوافه من الأمور .
- معناه أسرة لا ترتبط بهدف سامٍ ولا تسعى إلا إلى إشباع الغرائز .
- معناه أسرة هدفها الترف والتدليل .
- معناه أسرة تسرع إلى الهرب إذا دُعيت للجهاد .
- معناه أن تموت الأمُّ فى اليوم ألف مرة خوفاً أن يُصاب وحيدها بمكروه .
- معناه أن الأطفال فيها نماذج للمرض النفسى وضعف الإرادة .

كم سمعنا من الأمهات عن التعب الذى تلقاه الأم كى تطعم وحيدها لقمة ؟ إنها تسعى وراءه فى جوانب البيت تحمل إناء الطعام والملعقة كلما سار سارت وراءه تتحيَّن فرصة لإطعامه ملعقة ، وتستخدم كل الوسائل من ترغيب وترهيب .

وهذا معناه أن ينشأ الطفل مريضاً هزيلاً مدلَّلاً ، لا يتحمل مسئولية ، ولا يعرف معنى العطاء والإيثار ، لأنه تعوَّد على الأخذ والتدليل ، وأن من حوله يخافون عليه فلا يعبأ بهم ولا يحس بالانتماء ، ولا يقوى على أن يمد يده بمساعدة .

وفى مثل هذا الجو لا ترى أثراً لقيمة سوى الأنانية وحب النفس والحقد على الآخرين الذين لا يعطونه كما كانت أمُّه تعطيه ولا يحسبون له حسابًا كما كان أبوه يفعل .

ومثل هذا الطفل يحتمله المجتمع كحالة نادرة فريدة تكمله حالات القوة وتستوعبه ، ولكن ما رأيك إذا تحوَّل المجتمع – فى معظمه – إلى هذه الحالة الشاذة ؟ ماذا ينتظر من هذا المجتمع سوى السلبية والأنانية والكسل وكل وباء من شأنه أن يحطَّ من قيمته ؟ وقد أحسَّت دول كثيرة متقدمة ماديًّا بهذا الخطر فعدلت عن أكذوبة الأسرة الصغيرة ، مثل ألمانيا وفرنسا .

إن المزيد من التدليل يخلق جيلاً من الموتى المستسلمين لكل داء ، أما الحرمان والحاجة فإنهما يخلقان الإرادة والقوة ، والحاجة أم الاختراع كما يقولون . ولا يحس بهذه الرغبة فى الاختراع إلا من عاش فى أسرة كبيرة لأنه يجد نفسه وحدة منسوجة فى البناء العام .

أما أمر التعليم فالمكان فى المدرسة حق لكل متعلِّم حتى التعليم الإلزامى ذلك الذى يضمن للإنسان حدًّا أدنى من القدرة على القراءة والكتابة واستيعاب الأمور المبدئية ، أما ما فوق ذلك فهو تعليم للمتخصص القادر ذهنيًّا فقط ، وإذا تحوَّل المجتمع إلى جيش من حملة الشهادات فقط فإنه يكتب بيده شهادة وفاته ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

إننا ندعو إلى تدارك الأمر إذ صار أمر اقتناء الثلاجة أو فرش البسط والسجاجيد أهم من تربية ابن نافع أو أبناء أقوياء . إن الأبناء خلق الله وهم امتداد لنا ، فكيف وصل بنا الحال إلى كراهية خلق الله ؟ وكيف كرهنا امتدادنا بحجة السعادة الموهومة ؟ ولا سعادة إلا فى العمل واليد العاملة ، ولو فى غرس فسيلة تأكل منها الأجيال .

المرأة الجبارة

قرأتُ رواية لم أتحقَّق من صحتها فى كتب الحديث أن النبى ﷺ كان يسير وحوله جماعة من أصحابه ، وكانت أمامهم امرأة فى الطريق ، فقال لها أحد أصحاب النبى ﷺ : أفسحى الطريق لرسول الله ﷺ ، فردَّت قائلة : الطريق واسعة . فقال النبى ﷺ : دعوها فإنها جبارة . أو كما قال .

وهذه الرواية إن دلَّت على شىء فإنما تدل على إشارة نبوية إلى بعض الطبائع الشرسة ومظاهرها فى المرأة . إنها تلك المرأة التى لا تهتم بشىء وتستهين بكل شىء فلا قيمة تمنعها أو تحد شرتها .

والحقيقة أن فى النساء من تشتدُّ وتقسو فى طبعها ، وهذه سنة الحياة ، فيها الوديع والشديد والهادىء والنافر . وهذه النماذج يغلب عليها الطبع فلا تملك له دفعاً . ولكن الذى نراه ونكره أن المرأة التى انتصرت على أنوثتها ورفضت فطرتها وطبيعتها قد تحوَّلت إلى ذئب شرس أو كلب برىٍّ مفترس .

ولن أشير إلى تلك النماذج السيئة : قاتلات الأزواج والأبناء ، وسالبات الأرواح بأساليب بشعة ينفر منها كل ذى حس وعقل ، فلقد ألقت المرأة بحجابها وكشفت عن سيقانها فاشتد قلبها وأسفرت عن أنيابها ومخالبها .

وقد أوصى الإسلام المرأة خيراً بأولادها ، فقال تعالى :

﴿ ولَا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ ﴾ (الممتحنة : ١٢)

وجاءت السنّة صريحة فى الرعاية بالأزواج ، قال ﷺ : « لو كنتُ آمراً أحداً بالسجود لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها » .

وسأل امرأة : أَلَكِ زوج ؟ قالت : نعم يا رسول الله . فاستوصى به خيراً حتى قال لها : « انظرى فإنه جنتك أو نارك » .

وغير هذا كثير ، وكتب الحديث بين يدى من أراد الاستزادة .

والمؤمنة الصادقة تعى دورها الإيجابى فى بيتها وترعى الله فى زوجها وأسرتها ، ولهذا نصح رسول الله ﷺ الرجل أن يختار لنفسه بين الجمال والمال والحسب والدين فقال : « فاظفر بذات الدِّين تَرِبتْ يداك » .

وجاءت المدنيَّة الحديثة للمرأة بقيم التمرُّد والثورة على ضوابط الإيمان ومتطلبات الأسرة ، فاستثارت فيها حمية الجاهلية ، وربَّت الأجيال النسائية تربية شيطانية ، وبدأت المرأة تكشِّر عن أنيابها وظهرت قسوتها بدرجات مختلفة :

● فأصبحنا نعتاد أن نقرأ عن زوجات شرسات فيهن قسوة وتمرد ، فإذا بهن يُكثرن الصياح والمَنَّ على الأزواج بما يتقاضين من راتب شهرى ، ويطالبن بالمقابل أن يشارك الزوج فى أعمال البيت جزاء ما شاركت به من مال[1] .

وهكذا زالت الفوارق بين الرجل والمرأة ، وهذا هدف سامٍ من أهداف حركة المساواة المزعومة . وأخطار هذا الموقف تكمن فى اشتغال الرجل عن السعى الجاد والعمل المنتج بما لا عائد له فى تقدُّم المجتمع واستقراره . وهكذا تحوَّل المجتمع الإسلامى إلى عالة ، كَمٍّ مُهمِل لا قيمة له ؟ فأين هى القيادة الواعية المتفرغة للعمل والتوجيه ؟

وقد يحتجُّ البعض بأن دول أوروبا قد خرجت فيها المرأة وقاسمت الرجل حياته وقاسمها حياتها ، ومع ذلك فأوروبا فيها الاكتفاء الذاتى والتقدُّم ولا زالت على حالها من القيادية والتفوُّق بل وربما اتجهت إلى الأفضل ، وبذلك ينتقض القول بأن

---

(١) كان النبى ﷺ يشارك أزواجه فكان ﷺ يرقع ثوبه ويخصف نعله ، وليس فى هذا خطر وإنما الخطر فى الثمن والمقابل ، فمشاركة الزوج هنا لإتاحة المزيد من التحلُّل والتمرُّد للزوجة .

خروج المرأة ومقاسمتها لحياة الرجل ومشاركته لها ليس هو السبب فى تدهور أحوال المشرق العربى والدول الإسلامية .

وقد أشرنا إلى أن حضارة أوروبا وتقدُّمها لم يكن للمرأة دور فيه ، وعرفنا أن خروج المرأة ومشاركتها جاء تالياً للنهضة والتطور ، فأوروبا تقدّمت واستقرَّ الأمر فيها دون مشاركة المرأة فى هذا كله ، وامتدت يد أوروبا لتقبض على أعناق البلاد الإسلامية وتمتصَّ خيراتها ، ولهذا لم يظهر الأثر السلبى فى البلاد الأوروبية وأمريكا ، إذ كانت تستعيض عن الفاقد فى إنتاجها بما يتدفَّق إلى خزائنها من أموال البلاد المستضعفة ، وبهذا لم تتأثَّر الدول الأوروبية بنفقات الاستهلاك التى فرضها خروج المرأة . واستطاع التقدم التكنولوجى واستقرار الأحوال الاقتصادية تغطية جوانب العجز والقصور الاجتماعى التى خلقها خروج المرأة على دورها ، وساعدت على رتق الفتق أو قل تغطيته عن أنظار العوام ، وهذا أوهمهم أن خروج المرأة هو سبب من أسباب التقدُّم والحضارة ، وليس هذا بصحيح بل العكس هو الصحيح ، فإن خروج المرأة على دورها سيظل سبباً من أسباب الانهيار وجرحاً دامياً يستمر نزيفه حتى الموت .

ولا مجال للانخداع بطول مدة المرض ومقاومة الجسم له ، وهى مقاومة قد تستغرق أجيالاً حتى تظهر آثارها السيئة ، وطول المدة فى المقاومة – وحده – هو سبب الانخداع :

﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الحديد : ١٦)

وقال سبحانه : ﴿ ولَكِن مَّتَّعْتَهُم وَآبَاءَهُم حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وكَانُوا قَوْماً بُوراً ﴾ (الفرقان : ١٨)

بعد أجيال حين تنهار الحضارة المادية فى أوروبا لن يذكر أحد أن المرأة سبب الانهيار ، بل ربما ستكون المرأة وقتها ضحية يرثى لها حين تفقد كل شىء .

● وتطوَّرت تكشيرة المرأة إلى صراع وتحدٍّ مكشوف واستهتار ببيت الزوجية ، فما دام للمرأة دخلها الخاص وسعيها فى الحياة فلا خوف من تقلُّبات الأيام ، ولا قيمة لغضب الزوج أو رضاه ، بل إن ما تتقاضاه الزوجة حافز لها على ترك الزوج ،

ومبرِّر تقنع نفسها به حين يضيع الأولاد وينحرفون ، إنها حينئذٍ ستبكى وتقول : ماذا أفعل لهم ؟ لقد حققت لهم كل شيء ، وضحَّيت براحتى لأوفر لهم الغذاء اللائق والكساء الفاخر والأجهزة الكهربائية ، ولكنهم لم يقدِّروا تعبى من أجلهم ، فلماذا انحرفوا ؟ أو لماذا خابوا وخسروا ؟ كل ذلك سوف نسمعه أو مثيله . ولكن يغيب عن الذهن أنها حرمتهم من كل شيء ؛ من صدقها مع نفسها ومع جوهرها وحقيقتها ، فخرجت وانحرفت قبل أن ينحرفوا ، وفشلت فى دورها قبل أن يفشلوا .

ولم تَعُدْ فى البيت قيادة تقوم بواجبها ، بل صارت الأمور غامضة والأحوال متشابكة والمسئوليات مبعثرة ، وصار الرجل فى هذا الجو الحائر مثله كمثل طفل أو صبى فى البيت ، فانهارت القدوة أمام الأطفال ، وكبروا على قيم التفكك والصراع ، واهتزَّت الصورة وتشابكت الأيدى فى رقصات أشبه برقصات الطير المذبوح ، وتطوَّحت الأيدى وتهاوت على الوجوه ، وانهار كل شيء ، وماتت الأسرة كأسرة وإن بقيت الأشباح والأطلال تجمعها المصالح . ولا يعتذرنَّ معتذرٌ ببعض النماذج التى ما زالت تحافظ على كيانها ، فهذه النماذج دليل انهيار ومثار بكاء على الأطلال التى انتشرت ، وعلى الأعمدة التى انهارت ، وعلى الأعمدة الآيلة للسقوط والانهيار .

● وفى قمة المأساة تُسفر الحقيقة عن وجهها حين نسمع ونقرأ عن زوجات بدأْنَ يفترسن أزواجهن ويقتلن أولادهن ، حتى كاد أن يستقر فى الوجدان أن المرأة تحوَّلت إلى ذئبٍ مفترس ووحشٍ كاسر ، وتحوَّل الرجل قائد الأسرة ومربِّيها وناظم عقدها إلى فريسة وضحية لثورة المرأة وخيانتها .

● وتمادت المرأة فى الطريق إلى غايته وصارت الفتيات والنساء يُدَرَّبْنَ على الرياضات العنيفة من جرى ومصارعة وتدريبات « الكنغ فو » والكاراتيه ، وليس هذا تخوُّفاً على الأسرة وحدها بل فيه تهديد للمجتمع من جذوره .

● إننا أمام نوعية جديدة تغزو المجتمع ، بل وأمام مجتمع من نوعية جديدة ، مجتمع بلا أم وبلا زوجة ، مجتمع تسوده الشراسة ، وتحكمه البهيمية . فهل من عاقلٍ يراجع نفسه ؟

المرأة ومعاندة الحكمة الإلهية

جلستُ مجلساً فيه بعض المتعلمات أو قل بعض طالبات العلم للدنيا ، وتطرَّق الحديث إلى نعيم أهل الجنة وما أعدَّ الله للمؤمنين من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما قال سبحانه :

﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (ق : ٣٥)

وقلتُ : إن للمؤمن زوجات من الحور العين ، وفى بعض الروايات « سبعين من الحور العين » غير زوجاته المؤمنات فى الدنيا .

وسرعان ما قالت إحداهن ضاحكة أو هازلة أو جادة : ولماذا يُخَصُّ الرجل وحده بذلك فى الجنة ؟

وشدَّنى هذا التساؤل الماكر الخبيث إلى ما يدعو إليه المتحلّلون من كل قيمة ، المعاندون لكل تشريع قويم . فهم يتحدثون فى خبثٍ وغمزٍ ولمزٍ عن تعدُّد الزوجات والخصوصية الجائرة للرجل فى هذا الباب . وبعيداً عن البحث فى حكمة هذا التشريع يبدو الأمر تحريضاً للمرأة على التحلُّل والبحث عن أكثر من رجل .

وفى هذا المجال يجب أن يتأكد الإنسان المؤمن أن الحكمة الإلهية بعيدة عن العبث والفوضى ، وأن العبث والفوضى نابعان من حماقة الإنسان وجهالاته ، حيث يعاند الحكمة ويخرج على التشريع .

وقد أعطانا رسول الله ﷺ الدرس العظيم فى هذا الجانب وفى موقف يرتفع على علاقة الزوجية ويضعها فى مكانها الصحيح أمام قيم البر والطاعة الواجبة للوالدين ، ناهيك عن الطاعة الواجبة لله تعالى :

فقد رُوى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : « كانت تحتى امرأةٌ أحبها وكان عمر يكرهها ، فقال عمر : طلِّقها ، فأبيتُ . فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فقال : أطِعْ أباك وطلِّقها ، فطلَّقتُها » وهو حديث إسناده صحيح .

وليتأمَّل أهل عصرنا - وخاصة المتفرنجين منهم عبيد الخواجات وعبيد النساء - هذا الحديث ، حين يرون الطلاق عملاً فظيعاً ، ويشنِّعون به أقبح التشنيع ، ويريدون أن يكون الزواج مؤبَّداً مهما تعتوره من عقبات ومنغِّصات ، ويرون أن فيه ظلماً للمرأة ، وهم ظلموها حين أخرجوها إلى الطرقات ، والتصرُّف بالمعاملات والعمل فى المتاجر والمصانع ، وحين أطلقوا لشهوتها العنان بالخمور والمراقص والاختلاط والخلوات .

فهذا هو عبد الله بن عمر يحب امرأته وأبوه يكرهها ويأمره بطلاقها فيأبى ، فيأمره رسول الله ﷺ بطاعة أبيه مقدِّماً طاعة أبيه الواجبة على حبه وعلى زوجه ، والنساء غيرها كثير ، وفى ذلك عبرة لمن يعتبر[1] .

إن الرجل زارع والمرأة أرض .. والأرض لا يتعدَّد زارعها فى حين أن الزارع تتعدد أرضه ، وتعدُّد الزرَّاع يفسد الأرض إذ تختلط الأنساب .

إن الله تعالى قضى بالتعدُّد وينكره دعاة التغريب والتبوير ، فأفسدوا الفطرة بذلك ، فخربت الحياة وتاهت الأمور ، نعوذ بالله من الخذلان .

* * *

---

(١) بصائر من تعليقات شمس الأئمة أبى الأشبال أحمد محمد شاكر على أحاديث مسند الإمام أحمد - أعدَّها قتيبة بن عدنان - دار الصحابة .

النموذج اليابانى والعقول الفائقة

بعد أن عرضنا تاريخيًّا لجوانب الحضارة ، وبيَّنا أن لا دور للمرأة فيها ، ووضَّحنا أن الأدوار التى انتعشت فيها الحضارة كانت المرأة تقوم بدورها الطبيعى بجانب الرجل تظلِّله وتقدِّم له العون وترعى له أولاده وتقوم على تربيتهم لتمدَّ المستقبل بالرجال القادرين .

أما الأدوار التى انتكست فيها الحضارة فهى تلك العصور التى تخطَّت المرأة دورها وتنكَّرت لطبيعتها وخرجت على الفطرة . فخروج المرأة دليل تدهور وفتور حضارى .

وهذا الحديث ليس تجنيًّا أو ادعاء ولكنه حديث التاريخ والحضارة قديماً وحديثاً .

ولا زال صوت الحقيقة يدوِّى فى الأسماع لمن شاء أن يتدبَّر أمره ويجمع رأيه . وهذا الصوت تصرخ به اليابان فى عصرنا الحديث .

واليابان عملاق اقتصادى جبار طائح ، وهو عملاق تخشاه أعتى الدول وأغناها سواء كانت فى الشرق أو الغرب . وقد شقَّت اليابان طريقها انتصاراً على جوانب الفاقة وفقر الموارد الاقتصادية ، ولكنها صنعت من الفقر ثروة جعلت منها حديث البشرية ، فالتقدُّم العلمى والتكنولوجى والمخترعات والآلات الحديثة كلها رمز التقدُّم والانتصار .

فما شأن المرأة اليابانية وما حقيقتها ؟ هل ثارت لحقوقها ونادت بالمساواة ؟ هل طعنت على الرجل اليابانى وحقدت عليه منزلته ومكانته ؟ هل حاولت أن تهزَّ كيان الأسرة ؟

لم يحدث من ذلك شىء ، لأن كل ما سبق ليس إلا دعاوى العاجزين الذين فشلوا فى تحقيق ذاتهم وانهزموا أمام أنفسهم .

إن المرأة اليابانية لا زالت تسير خلف زوجها ، وتنتظر عودته ، وتعدُّ له طعامه ، وتقف خاشعة بين يديه ، وتنتظره حتى ينتهى من طعامه .

لقد فتح اليابانيون عيونهم على العلم فازدادوا فيه شأناً وبلغوا فى التقدُّم مبلغاً عظيماً ، ولو تفتَّحت عيون اليابانيين على دعاوى الزيف والخديعة ونادوا بتحرير المرأة وأنفقوا وقتهم فى الدعاية لقضية زائفة – لو فعلوا ذلك لتخبَّطوا ولَمدُّوا أيديهم يطلبون المعونة ممَّن حولهم .

لقد فتحت الدول المتخلفة عيونها على الثياب الغربية والبريق النسوى فاندفعوا يقلِّدون ، وغاب وعيهم فلم يدركوا حقيقة النهضة وأصول التقدُّم .

فلا زالت المدارس تُجرى تجارب التشريح ، وتقوم بتشريح الضفادع أو السمك ، ولم تجد مَنْ يأخذ بيدها لتُخرج رجالاً علماء ، فخرَّجت أصنافاً من البشر يردِّدون التجارب ونتائجها حفظاً عن ظهر قلب ويعجزون عن عمل إيجابى واحد لخدمة البيئة . وفى الوقت ذاته انطلقت النوادى والأبواق تدعو إلى حرية المرأة وكأنها مستعمَرة مستذلَّة ، فضاعت الجهود هباء وازدادت الأوطان تخلُّفاً .

فهل من رجلٍ رشيدٍ يأخذ بيدنا إلى الصواب ، فتسكت الأصوات البلهاء ، وتعود المرأة المسلمة إلى رشدها ليتفرغ الرجل إلى دوره المطلوب ؟!

* * *

ثورة ضد الحجاب

حجاب المرأة قضية فاقت فى الاهتمام بها الكثير من القضايا . فلقد فاقت الاهتمام بقضية الإنتاج والديون ، كما فاقت الاهتمام بقضية المخدِّرات والإدمان ، لأنها لم تشغل جهازاً حكوميًّا بل شغلت الرأى العام الإسلامى والغربى معاً .

لقد طالعتنا وسائل الإعلام بأن بعض مدارس إنجلترا وفرنسا قد منعت بعض التلميذات (لا يتجاوز عددهن ست طالبات أو سبعة على الأكثر فى كلتا الدولتين) من دخول مدارسهن ، وهؤلاء من الطالبات المسلمات اللاتى آثرْنَ أن يضعن غطاءً على رءوسهن . وبمجرد ظهور الفتيات فى مدارسهن – فى فرنسا ثم إنجلترا – ثار الثائرون ومنعت إدارة المدرستين الطالبات من الدخول بهذه الصورة .

نعم ثارت ثائرة المتعصِّبين ضد مظهرٍ اعتبروه غزواً فكريًّا إسلاميًّا يهدد أوروبا ، وانهارت بذلك دعاوى الحرية والديمقراطية والحضارة التى تضمن للإنسان كرامته ، وغير ذلك من دعاوى الزيف الخادع الذى انبهرت به أدمغة الفارغين فى ديار المسلمين .

والمتفحِّص فى هذا الأمر يستطيع أن يرى الحقيقة .. وهى أن الحرب معلَنة على الأفكار الإسلامية ، فكيف يُسمح لفتيات أن يرتدين الحجاب ويظهرن على صورة لم يعهدها المجتمع الأوروبى ؟

إن هذه الصورة يمكن أن تُحدث آثاراً سلبية على ما تعارف عليه المجتمع الأوروبى ، فكيف يأمن القوم على الرجل الأوروبى أن تجره تلك الأمثلة على طلب المزيد من هذا النموذج الذى يندر مثاله ؟ من يدرى ماذا تكون النتيجة ؟

إن الرجل حين يرى امرأة مثقفة متدينة ترعاه فى نفسه ، تحتشم عن الناس وترعى حق الله ، حين يرى الرجل ذلك فإنه سيسارع إليه طلباً للأمثل ، وحينئذ تكون الطامة فى نظرهم .

ولهذا وقفت الإدارات ضد الطالبات الملتزمات ، دون اعتبار لحرية شخصية أو رعاية لقانون .

وقد يُستساغ أن يقف الرأى العام والصحافة الأوروبية والغربية أمام مظهر يذكّر الناس بالإسلام ، إذ كيف نطلب من غير المسلمين أن يؤيِّدوا المظاهر الإسلامية ؟ ولكن العجيب حقًّا أن نرى فى بلاد المسلمين ثورة لا تختلف عن ثورة الأوروبيين على أمر الحجاب ، وربما كانت أشد شراسة على الفتيات المتحجِّبات .. من الغريب أن نرى الأقلام والصحف فى البلاد الإسلامية توجِّه اللطمة تلو اللطمة للفتيات المسلمات المتحجبات .

ولقد تخصَّصت بعض الأقلام للحديث الجارح عن هؤلاء الفتيات وصارت تَسِمُ الداعين إلى الحجاب والتزام المرأة بدورها بأنها دعوة إلى عصر الحريم وعودة بنا إلى عصور الظلام والقهر ، وما إلى ذلك من دعاوى تلقيها أقلام غير مسئولة وتردِّدها ألسنة مأجورة ، وصار الاستهتار بأمر الشريعة طريق الشهرة والسلطان وباب الجاه والعنفوان . وإذا كانت هجمات الاستهتار بالقيم صادرة من أصحاب هذه القيم فلهذا دلالاته الخطيرة :

١ – فهم يقدِّمون للغير المبرر للهجوم عليهم .

٢ – وهم كذلك يفقدون الحصانة الواقية لهم من أى هجوم ، فكيف تتقى هجوماً صادراً من أناس يكرهون ما أنت مستهتر به من قيمك وثقافتك ومقوِّمات شخصيتك ؟

٣ - كما أنهم يزعزعون الثقة بهذه القيم فى نفوس المؤمنين بها الواثقين فيها .

٤ - إنهم يخلقون حالة من الانفصام والصراع فى المجتمع ، فينقسم المجتمع بذلك إلى فئات متضاربة واتجاهات يحكمها العداء .

٥ - تؤثِّر هذه الحالة تأثيراً سلبيًّا على استقرار المجتمع وقدرته على الاكتفاء الذاتى ، وتتفتَّح الشهية إلى كل غريب مستورد فى البضائع كما فى الأفكار .

٦ - ينحلُّ شباب المجتمع - من فتيات وفتيان - ويثورون على كل قيمة صالحة من قيم التراث البائد فى نظرهم وبخاصة أن الدعوات الجديدة تغذِّى نهَمَهم إلى الشهوات وتفتح أمامهم الأبواب الموصدة إلى الحرية غير المضبوطة أو قل الفوضى المحكمة والانهيار المنظَّم .

وإذا فسدت العلاقات وساد الشك بين الطوائف المختلفة فى المجتمع الواحد آذن ذلك بالانهيار والتدهور العام مهما بالغنا فى التحفُّظ فى القول والتستُّر وراء اللافتات البرَّاقة ، لأن ما سيتبقى من هذا المجتمع لن يعدو أفراداً تائهين يفتحون أفواههم انتظاراً للقمة التى يلقيها إليهم غيرهم ، وهذا شأن مجتمع العبيد فى ظل مجتمع السادة .

وحتى لا نبالغ فى القول والاتهام أسوق مثالاً على استهتار الصحف والمجلات بقضايا التدين والموقف الإسلامى من سفور المرأة :

فى إحدى المجلات المصورة الأسبوعية[1] تطالعنا المجلة بصورة الغلاف للبلاج وبعض الفتيات العاريات منبطحات أو جالسات فى زى البحر (المايوه) . وبعد أن تخف الصدمة من مثل هذه الصورة - ومثلها كثير فى سائر المجلات المصورة وعلى شاشات التليفزيون - نقلِّب صفحات المجلة لنصل إلى ص ٢٨ لنطالع حديثاً أو تحقيقاً صحفيًّا مع فضيلة الشيخ الشعراوى تحدَّث فيه عن موضوعات عدَّة حول معانى الإخلاص وغيره من الموضوعات إلى أن يتطرَّق الحديث عن الحجاب ، وبالتقسيمات المعهودة من الشيخ نراه يقسِّم الحجاب للموضة

(١) آخر ساعة (الصادرة فى ٢٠ / ٨ / ١٩٨٠) .

أو العرف .. وهذا ليس لله .. ثم ينتهى الأمر دون أن يذكر الشيخ إن كان الحجاب واجباً على المرأة أم لا ؟ ولم يذكر أى نص فيه ينتفع به قارىء التحقيق .

والأدهى من ذلك فى ص ٣٢ – أى بعد حديث الشعراوى بصفحتين فقط – عرض للأزياء العارية جدًّا ، وقد استغرق العرض صفحتين ، وذلك خلاف ما هو متناثر على صفحات المجلة من صور الممثلين والممثلات والمرأة عموماً فى أوضاع مختلفة .

وهذا الأمر – أمر الصور العارية – أصبح أمراً عاديًّا نراه فى الواقع الحى ، وفى الصدى الثقافى للمجتمع حتى صار ضرورة حضارية فى نظر الغالبية العظمى من الشعب .

وهذا فإنى لا أسوق المثال كأمر مستغرَب على عامة المثقفين ، ولكنى أسوقه لأدلِّل به على حالتنا مع القيم التى نؤمن بها .

وهنا يثور سؤال بل أسئلة : ما الذى نؤمن به ؟ هل نؤمن بالله وآياته حقًّا أم أننا نخادع أنفسنا ونخادع من حولنا ؟

هل الإيمان عندنا عقيدة وسلوك أم سلوك يعادى العقيدة ؟

وأنت حين تفتح وتقلِّب فى صحيفة من الصحف ، ترى الصحيفة خليطاً عجيباً من الاتجاهات ، فلا هى بالتى تدعو إلى الدين ولا هى بالتى تدعو إلى الحرية ، ولا هى بالصحيفة التجارية . إنك حين تقرأ صحيفة عامة تفاجأ أنك لا تقرأ فكراً أو ثقافة لها هدفها المحدد بل تحس أنك بين جماعة من المتسامرين يشدُّهم الحديث إلى أى اتجاه دون التزام أو ارتباط .

فما نتيجة ذلك فى القارىء ؟

النتيجة الحتمية هى أن يتميَّع موقف القارىء من الدين وقيمه ، فإذا رأى فى الصحيفة مكاناً للمرأة وتبرُّجها ، ومكاناً للإعلانات ، ومكاناً للدين .. الخ صار الدين عند من يتمسَّك به أمراً عاديًّا لا ميزة له ، فلم يعد حاكماً على الأشياء أو مهيمناً على سلوكيات الحياة ، بل صار شأناً من شئونها لا يختلف عن الاستيراد والتصدير ولا يختلف عن عروض الأزياء ولا عن صفحة الوفيات أو الإعلانات .

وهكذا انفصمت العُرى وتداعت الأنقاض واهتز البناء .

ونعود إلى القضية التى طرحناها حول الحجاب فى أول هذا الحديث . فلقد قامت الدنيا ولم تقعد فى فرنسا وإنجلترا لأن ثلاث فتيات هنا وهنا ارتدين الحجاب .. مجرد غطاء الرأس . وكأنه لم يكتف الغرب بما آل إليه أمر الأخلاق فيه حتى صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً .

وفى بلاد المسلمين يحدث نفس الشيء فى عصر سموه عصر التنوير ، وهو عصر يؤذن بسيادة البهيمية واستعمار النفوس والعبودية للدول الكبرى الغنية ، تلك الدول التى تملك أن تعطى لقمة الخبز – ولا أقول لقمة العيش – للأفواه المفتوحة والعقول النائمة ، وكأنى بفتنة الدجال وقد آذنت بإعلان ، وكأنى بثمار غرس الدجاجلة يؤذن بالنضج ويشى بالحصاد .

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن ملامح هذه الفتنة وعن أدوار القائمين بها :

١ – وأول من يشعلها آلاف اليهود يلبسون الطيلسان .

٢ – وأول من يفتتن به بل أول من يخرج إليه النساء حتى أن الرجل المؤمن ليوثق زوجه وأخته مخافة أن يخرجن إليه وتصيبهن الفتنة به .

٣ – وفتنة الدجال هى فتنة الجوع ويخيِّل إليهم أن رغيف الخبز مع الدجال وأنه يضمن لهم الجنة ويخوفهم بالنار .

٤ – وأنه يمُرُّ على الخرائب فيقول لها أخرجى كنوزك فتتبعه كنوزها .

وهذه هى حالنا تنبىء بانفتاح أبواب الفتنة وتذكرنا بتحذيرات الرسول ﷺ[1] .

بين حجاب الظاهر وحجاب الباطن

سنَّ الإسلام للمرأة الحجاب حتى لا تكون سبباً فى تفسخ المجتمع وقيمه . ولو افترضنا أن التفسُّخ سيصيب القيم الخلقية دون الأساس المادى للمجتمع

(١) انظر كتابنا « المسيخ الدجال » نشر المكتبة العلمية . وراجع كتابنا : « النصيحة النبوية فى النجاة من الفتن » نشر دار البشير بالقاهرة .

فإن هذا التفسُّخ له أثره السلبى - كما رأينا - على الأساس المادى للمجتمع .

والمؤمن مطالب أن ينفِّذ أوامر الله تعالى ولو لم تظهر له حكمته ، كما قال سبحانه : ﴿ ومَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولَا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللهُ ورسُولُه أمراً أنْ يَكُونَ لَهُم الخِيَرةُ مِنْ أمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب : ٣٦)

وقوله تعالى : ﴿ إنَّما كَانَ قَوْلَ المُؤْمِنينَ إذا دُعُوا إلى اللهِ ورسُولِه لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم أنْ يَقولُوا سَمِعْنا وأطَعْنَا ﴾ (النور : ٥١)

وقوله سبحانه : ﴿ وقَالُوا سَمِعْنا وأطَعْنا غُفْرانَكَ ربَّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ ﴾ .
(البقرة : ٢٨٥)

فالمؤمن - والمؤمنة - مطالبان بالاستجابة لأمر الله والسمع والطاعة ، وهذا معنى الإسلام . ولقد رأينا بعض النساء أردْنَ أن يجمعن بين الطاعة والجمال أو الحرص على المظهر الجمالى فاخْترنَ الحجاب الفاضح ، وبدأت التخصصات الشيطانية تستجيب لرغبات المرأة - كأنثى - بل تطارد جوانب الإغراء فيها وتتقصَّاها واحدة واحدة وتتفنَّن فى إظهارها ، وصارت بعض المحجبات نموذجاً للإغراء والفتنة . وقد خصصت بعض محلات التجميل أركاناً للمتحجبات ، وأنشئت مراكز لبيع الملابس والأغطية الفائقة والمتميِّزة للمتحجِّبات . وصارت المحجبة - غالباً - مثاراً للفتنة وحرباً على القيم ، تماماً كالمرأة العارية ، إلا ما عصم الرحمن .

فالمرأة هى المرأة ، ولم يَنْهَ الإسلام عن كشف العورة فقط بل نهى عما يحدِّد جوانب البدن ، فالثياب القصيرة حرام قطعاً ، والثوب الكاسى إذا كان يحدِّد أجزاء البدن كما نرى فى حزام الوسط وضيق الأكتاف وغيرها ، كل ذلك يحدِّد ملامح جسم المرأة ويصفه كأنك تراه ، فليس هذا بحجاب ، وإنما هو امتهان واستهتار ، وربما يدخل فى باب النفاق .

ولهذا يدخل هذا الحجاب فى باب التجميل أكثر من دخوله فى باب الوقار وخشية الله تعالى . وإننا يعزُّ علينا أن يغيب عن المرأة قدرها ، وأن تنام عن منزلتها عند الله تعالى ، وأن تبيع الغالى وتشترى الرخيص ، فتبيع آخرتها وتصير للشيطان سنداً .

« ولا نحسب أن المجتمع الإنسانى ناج من مشكلاته المعقدة فى سياسة الأمة وسياسة البيت وسياسة الحياة الفردية حتى يثوب إلى التقسيم الطبيعى الذى لا محيص عنه ، فيعمل الرجال عمل الرجال ويعمل النساء عمل النساء »[1] .

وقد سمحت القوانين بالحد من الحرية فى سبيل تأمين الأموال وحراسة الطرق والمواصلات وحماية السابلة من أخطار المركبات والسيارات ، فمن السُّخف أن يقال إن الفرد يحظر عليه الانطلاق على هواه فى شئون كهذه ويُباح له أن ينطلق فى أهواء الشهوة بغير ضابط من قبيل الحيطة والرقابة التى لا تعوقه عن مباح .

وما من عقل سليم يرى أن الشرائع تتخطَّى حدودها حين تعرض لمنع التبذُّل والغواية على هذا النحو الصريح ، وما من عقل سليم يجادل فى أن حراسة الأعراض والأخلاق بمثل هذه الحيطة فضول من الشرائع والقوانين .

ولا فائدة للرجال ولا للنساء ولا للأمة فى جملتها من هذا الرياء الذى يجزم باستحالة الأخطاء الشهوانية حين تُستثار بغواية الزينة المكشوفة ، وهو فى الوقت نفسه لا ينزِّه النفس البشرية من سرقة الدراهم والسلع إذا عُرضت بغير حيطة لكل من يمدُّ يده إليها ، ومن حاول التفرقة بين الأمرين بالتفرقة بين الطمع فى الجماد والطمع فى مخلوق إنسانى يؤكد ضرورة الحيطة هنا من حيث يريد أن يبطلها أو يضعفها ، لأن الخطر الذى تلتقى فيه الرغبة من الجانبين أوْلى بالحيطة من خطر مقصور على رغبة السارق دون الجماد المسروق »[2] .

ومما يدل على أن تبذُّل المرأة وخروجها على العرف والإيمان إنما هو ترتيب عدوانى من أعداء الأمة ما تختطه الجماعات الماسونية السرية وما فى معناها . وتأمَّل هذا التوجيه : « على الإخوة الماسونيين أن يَنْفُذوا فى صفوف الجمعيات الدينية وغيرها ، عليكم أن تنتزعوا الأخلاق من أسسها لأن النفوس تميل إلى قطع روابط الأسرة والاقتراب من الأمور المحرمة لأنها تفضّل الثرثرة فى المقاهى على القيام بتبعات الأسرة ، ويجب أن يُلقَّن هؤلاء بصورة عرضية متاعب الحياة اليومية ،

---

(١) الفلسفة القرآنية للعقاد ، ص ٤٦ .

(٢) المرجع السابق .

وعليكم أن تنتزعوا أمثال هؤلاء من بين أطفالهم وزوجاتهم وتقذفوا بهم إلى ملاذ الحياة البهيمية »[١] .

والدليل الواضح أن الداعين إلى الإصلاح المزعوم إنما هم دعاة لفكر غريب ونتاج الحركة الاستعمارية « أنهم لقوا التشجيع من كرومر (المندوب السامى البريطانى) لأن هذا الإصلاح يحقق له هدفين : فهو يشغل الرأى العام بما يُطرح على بساط البحث من مسائل وما يُثار من مشاكل فينصرف عن الانسياق فى تيار الكراهية للاحتلال الانجليزى .. ثم إن الإصلاح يدعِّم فى الوقت نفسه حجة الاستعمار فى أنه دائب على العمل لترقية مصر وإصلاحها ، لذلك أُطلقت حرية الصحافة فى الكلام عن عيوب المجتمع وآفاته ووسائل علاجه وطرح الكثير من المسائل ، واحتدَّ النقاش وبرز بين المصلحين طائفتان متميزتان تغاير إحداهما الأخرى ، واحدة تدعو إلى الحضارة الغربية وأخرى تدعو إلى الاحتفاظ بتقاليدنا الإسلامية »[٢] .

ويظهر من كل ذلك أن أهمَّ ما تتعلَّق به الهممُ الاستعمارية أن يتعرَّى العقل المسلم ، وأن تزول الهيبة من نفس المؤمن ، وألَّا يكون عند المؤمن أى احترام لقيمة إسلامية .

وكان من نتيجة ذلك أن وجدنا التفكك يسود المجتمع ، ووجدنا تعظيم العلم والهتاف بحياة الوطن لا تغنى شيئاً ولا تستنقذه من أيدى المخرِّبين ، وكم قرأنا عن موظف كبير ينتفض عندما يسمع نغمات السلام الوطنى (الملكى – أو الأميرى – أو الجمهورى) وبعد ذلك يغيب عن وعيه حب الوطن والانتماء إليه ، ويصير همُّه النهب منه والسرقة من أقوات الشعب والمتاجرة الرخيصة فى مصائر هذا الشعب ، حتى صارت تجارة الرقيق تتواضع وتتخاذل أمام تجارة المنتفعين بمصائر الشعوب وحريات الناس .

ولقد بدأت الطامة بخروج المرأة :

- فتفكَّكت الأسرة .

---

(١) أسرار الماسونية – جواد رفعت .

(٢) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر – دكتور محمد حسين .

• وافتقد الطفل الرعاية الأصيلة ولن تغنى عنه الرعاية البديلة ، فصارت تتداوله أيادى المربِّيات والخادمات ، فلم تنغرس فى نفسه قيمة ذات بال ، ولم تَنْمُ فى ضميره أية اتجاهات أخلاقية سوى الإحساس بالغربة والإحساس بالحاجة .

• وصارت القلوب سافرة لا تبالى بحرام أو حلال ، ولا تمانع فى غشٍّ أو تزوير ، ولا تطرب لموقف أخلاق .

وامتد عُرى المظهر إلى فضيحة الجوهر فصارت المرأة لا تستحى أمام زوجها أو أهل زوجها ، ولا تبالى بمن حولها ، إذا أمرها الدين تكاسلت ، وإن توجَّه إليها زوجها بالحديث تمرَّدت ، وإن دعاها داعى الهوى والشيطان استجابت ، وسوَّل لها الشيطان سوء عملها وزين لها باطل سلوكها ، فتمادت وتطاولت .

ولم تعدم المرأة سنداً لغرورها وتأصيلاً لباطلها ودافعاً لاستمرار خيانتها لنفسها ولربها ، حيث قدَّم لها الشيطان وأعوانه القليل من الحطام تنعم به وتلهو كما يلهو الطفل الغرير ، وليس هذا الحطام إلا بعض المال تتيه به على زوجها وأولادها ، وبعض الأثاث والرياش فى بيتها تتفاخر به أمام أصحابها وأقرانها ، فهذا جهاز جديد ، وتلك آلة مستحدثة ، ثم ثياب فاخرة .. من أين لها بذلك كله لولا ما أتاحه لها خروجها وتبرجها ؟

وفى مقابل ذلك فقدت المرأة الكثير فأصابها الذلُّ من حيث قصدت العزَّ ، ونالت العبودية وهى تظن أنها حرية ، وصارت عرضاً ماديًّا لا قيمة له إلا بمقدار ما يُنتفع به ، وأصبحت بضاعة مزجاة فى أسواق الشيطان ، وانتشرت أسواق الحريم فى الشوارع والطرقات ، وصارت الجوارى بين يدى السوقة والرِّعاع .

ويحذِّرنا القرآن الكريم من كل ذلك ، حذَّرنا من التباهى بالمظاهر والترف :

﴿ وإذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آيَاتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذينَ كَفَرُوا لِلَّذينَ آمَنُوا أَىُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقاماً وأَحْسَنُ نَدِيًّا ۞ وكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُم مِّنْ قَرْنٍ هُم أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئياً ۞ قُلْ مَنْ كانَ فى الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لهُ الرَّحمنُ مَدًّا حتَّى إذَا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إمَّا العَذابَ وإمَّا السَّاعةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكاناً وأَضْعَفُ جُنْداً ﴾ (مريم : ٧٣ - ٧٥)

وفى هذه الآيات تحذير أى تحذير للإنسان المؤمن ذكراً كان أم أنثى ، فليست الزينة مجال قياس فى حياة المؤمن ، وليس المظهر والنوادى سر تقدُّم المسلمين

أو دليل تقدُّمهم ، فالترف وسيلة هلاك ، ولهذا فليحذر المسلم أن تغتاله المادة وتجتاحه مظاهر الزخرف فينسى دوره ومصيره .

وحى الامتنان باللباس والزينة

امتنَّ الله على بنى آدم فى أول النداءات التى وجَّهها الله لهم فى سورة الأعراف بأن هيَّأ لهم سبيل الحصول على الملبس الذى يسترون به عورتهم ، ويريشون به أنفسهم فى مناسبات التجمل ، هيَّأ لهم مادته من القطن والصوف والحرير وما إليها ، وألهمهم بما خلق فيهم من غرائز طرق استنباتها وطرق صناعتها بالغزل والنسيج والخياطة ، ولفت أنظارهم إلى أن تقوى الله فى الانتفاع بتلك النعمة والوقوف بها عند الحد الذى رسم هو أساس الرضا وأساس الشكر ، وهو الذى يحفظ السوءات من أن تظهر أو تُرى ، وهو الذى يجمِّل الحسىَّ والنفسىَّ :

﴿ يَا بَنِى آدَمَ قد أَنْزَلْنا عَلَيْكُم لِباساً يُوارِى سَوْءاتِكُم وَرِيشًا ولِباسُ التَّقْوى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ لَعَلَّهُم يَذَّكَّرُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٦)

وإذا كان للقرآن دلالاته الصريحة التى تدلُّ عليها كلماته بمقتضى اللغة العربية فإن له بعد تلك الدلالة إيحاءات جدير بالناظرين فيه وبالمتعرِّفين على نواحيه أن يتنبَّهوا إليها وأن يسيروا فى طريق معرفتها والانتفاع بها . وهذه آية اللباس وإنزال مادته وتمكين الناس منها ، تحدث عن اللباس الموارى للسوأة وعن الرياش وعن لباس التقوى ، وهى بعدُ توحى لتحقيق ثياب المواراة والرياش بالصناعة وبالجدِّ فى تحصيل موادها ، وتوحى بأن ستر العورة وزينة التجمُّل من أهداف الحكمة الإلهية فى تمكين الإنسان من مادة اللباس وصناعته ومن طلب التقوى ومراعاة حق الله .

العرى والتبرج تلبية للشيطان

ولعل فى هذا الإيحاء تعريضاً بأن عادة العرى التى يألفها بعض القبائل المتوحشة ، وعادة إبداء شىء من مفاتن الجسم كما يراه دعاة الحضارة الفاسدة ، مخالف للأدب الإنسانى والإرشاد الإلهى . وأرجو أن يكون لهؤلاء وهؤلاء من

هذا الإيحاء الواضح ما ينبّه وعيهم إلى هذا الأدب الذى يضعه الله بأصله ويرشد إليه فى هذا النداء .

أرجو أن يكون لهم من هذا الإيحاء ما ينبّههم إلى أن الحضارة الحقة ليست فى كشف المفاتن ولا فى إظهار العورات المثيرات للغرائز ، وإنما الحضارة الحقة فى السير على سنّة الله ، وعلى مقتضى ما أودع فى الإنسان من الشعور الفاضل النزيه .

أرجو أن يجدوا فى هذا ما يحيى وعيهم ويرشدهم إلى أن النزوع إلى هذه التقاليد الفاسدة – التى سرت إلى جماعة المسلمين من قوم حُرموا من النظر فى آداب الله وإرشاداته – ليس إلا تلبية لفتنة الشيطان التى فتن بها والديهم من قبل . وذلك هو ما تضمّنه النداء القرآنى .

﴿ يَا بَنِى آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ﴾ (الأعراف : ٢٧)

توسط الإسلام في شأن الزينة

وفى نداء آخر :

﴿ يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُم عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولَا تُسْرِفُوا إنَّه لَا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف : ٣١)

فيكشف عن المعنى الإنسانى فى اللباس وأنه من الزينة التى تحفظ على الإنسان مكانته وتميّزه عن سائر الحيوان . ويأمر باتخاذها فى المساجد وما يماثلها من المجتمعات الإنسانية .

وهداية الله إلى هذه الأمور كهدايته فى كل شىء ، وسط بين تفريط يقع فيه فريق من الناس يحرمون به أنفسهم من التمتُّع بنعمة الله إما شحًّا وبخلاً وإما تنطُّعاً وتقشُّفاً ، وإفراط يقع فيه المترفون فوق الحاجة وفوق الزينة المعقولة .

أما هداية الله فى ذلك فهى الاقتصاد مع مراعاة الأحوال والظروف ، قال تعالى :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[1] .
(الأعراف : ٣٢)

لا كرامة إلا مع الحجاب الشرعي

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيكون فى آخر أمتى رجال يركبون على سروج كأشباه الرحال (وفى رواية كأشباه الرجال) ينزلون على أبواب المساجد ، نساؤهم كاسيات عاريات على رءوسهن كأسنمة البُخت العجاف ، العنوهنَّ فإنهن ملعونات ، لو كانت وراءكم أمَّة من الأمم لخدمن نساؤكم نساءهم كما يخدمنكم نساء الأمم قبلكم »[2] .

تأمَّل هذا الأمر الصريح من رسول الله ﷺ « العنوهن فإنهن ملعونات » ومعناه أن لا كرامة لهؤلاء النسوة فى ميزان الإسلام ولا قيمة لهنَّ فى ضمير المسلم .

وهذا ينبِّه هؤلاء الذين يعطون النساء فوق مكانتهن فيقابلوهن بالاحترام وينحنون أمامهن فى استخذاء ويسمون ذلك رقة وأدباً ويعدونه من باب الذوق فى معاملة الجنس اللطيف ، ويزيدون على ذلك أن يقدموهن ويسيرون خلفهن فى غبطة وسعادة ، وهم بذلك العمل المخزى يعملون على هدم الإسلام .

إننا نسمع الكثير من مقالات الثناء والمديح تنهال على امرأة لعملٍ تافهٍ قامت به ، بأن صنعت ثياباً محلَّاة أو أقامت عرضاً للأزياء أو افتتحت داراً للحضانة أو غير ذلك ، مما لم يظهر أثره ولن يظهر فى المجتمع إلا فى الهدم والتخريب . قال ﷺ : « من وقَّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام » فما بالك وهؤلاء أصحاب فسوق وكفر لا مجرد بدعة ، فمن استحلَّت العُرْىَ فقد كفرت لأنها أنكرت

---

(١) تفسير القرآن الكريم – الأجزاء العشرة – الشيخ محمود شلتوت – ص ٤٧٢ وما بعدها .

(٢) راجع : أشراط الساعة – يوسف بن عبد الله بن يوسف – مكتبة ابن الجوزى – السعودية .

معلوماً من الدين بالضرورة ، وردَّت نصًّا قرآنيًّا صريحاً ، ومَنْ رأت أنه حرام إلا أنها مضطرة إليه فهى فاسقة .

لقد أراد القرآن من المسلم أن يكون قلبه مع الإيمان والمؤمنين فكيف يليق به أن يحترم من استهانت بأمر الله ؟ إن القرآن يقول : ﴿ **المُنافِقُونَ والمُنافِقَاتُ بَعْضُهم مِّنْ بَعْضٍ** ﴾ (التوبة : ٦٧)

ويقول : ﴿ **والمُؤْمِنُونَ والمُؤْمِناتُ بَعْضُهم أَوْلياءُ بَعْضٍ** ﴾ (التوبة : ٧١)

وهكذا يريد القرآن أن يكون المؤمن بجانب المؤمن والكافر بجانب الكافر والمنافق مع المنافق حتى تتضح الأمور .

وقد حذَّر القرآن الكريم من مغبة اختلاط الأمور وتداخل المعايير قال تعالى :

﴿ **إلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فى الأَرْضِ وفَسادٌ كَبِيرٌ** ﴾ (الأنفال : ٧٣)

أى إن لم تكن ولاية المؤمن للمؤمن وولاية الكافر للكافر فهى الفتنة والفساد الكبير .

فما بال الإنسان يدَّعي الإيمان وقلبه يوالى المنافقات ؟ وما بال الأمور التبست على المؤمنين فتراهم يصلُّون المفروضة ثم يسارعون فى أهواء النساء ويبجِّلون الخارجات على النصوص والتشريع ؟

إننا لا نطالب المؤمن أن يمسك العصا ويطارد النساء فى الشارع ، بل نطالبه بما هو فى مقدوره واستطاعته .

وقد حرص الإسلام على الاهتمام بالمرأة الملتزمة ، فإذا كانت المرأة العارية ملعونة بأمر رسول الله ﷺ فالمرأة الملتزمة مصانة ومحفوظة بأمر الله تعالى ، حيث قال سبحانه مقدماً الحكمة فى الأمر بالحجاب :

﴿ **ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ** ﴾ (الأحزاب : ٥٩)

فالمرأة المحتشمة تضع علامة الإيمان وترفع رايته ، ولذا ينبغى أن يكون لها كل الاحترام والتوقير .. نعم ﴿ **وللهِ العِزَّةُ ولِرَسُولِه وللمُؤْمِنينَ** ﴾ (المنافقون : ٨)

التفاضل فى الفسوق

يحلو لبعض المتعالمين الذين يدافعون عن العُرى أن يلبسوه ثوب المدنية والحضارة . ومن هؤلاء مَنْ يتغاضى عن لونٍ من العُرى ولكنه يشمئز حين يرى لوناً آخر .. فمثلاً : يسكت كثير من الكتَّاب عن الملابس القصيرة التى تكشف السيقان ، ولكنهم قد ينقدون مَنْ تبالغ فى تقصير ثيابها إلى ما فوق الركبة . والبعض قد يستنكر الصدر العارى ولكنهم يسكتون إذا كان فوق الصدر العارى غلالة رقيقة لا تخفى من العرى إلا بمقدار ما يستثير من الغرائز والفضول .

بل إننا كثيراً ما نسمع دفاع بعض العاريات بأنها تلبس « جيبة » إلى نصف الساق وتلبس حذاء برقبة يستر قريباً من النصف الباقى ، فإذا انكشف جزء بين رقبة الحذاء ونهاية الثياب فهو جزء بسيط .. هكذا .

ومثل هذا أو قريب منه تقوله المرأة ذات الحجاب العارى فهو أفضل من الثوب العارى .. والرأى عندها أن اللحم مستور وإن أظهر الحجاب تقاسيم الجسد كسجين يلتمس الهرب .

ونقول لهؤلاء وهؤلاء : إنه لا تفاضل فى الخروج على أمر الله تعالى ، فالخارج على أمر الله قدر أُنملة يسير فى نفس الخط الذى يسير فيه الخارج على أمر الله قدر ذراع أو أكثر من ذلك . وهذا بعض معانى قول الله تعالى للنساء : ﴿ **وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ** ﴾ (النور : ٣١) ولم يقل ولا يبدين عوراتهن أو أجسادهن .

وشبيه ذلك ما عرفناه عن إقامة الحد على السارق فى الكثير والقليل ، يسرق الكثير فتُقطع يده ويسرق القليل فتُقطع يده .. وهكذا الأمر فى زينة المرأة يلحق قليلها بكثيرها .. ولا مساومة فى الأمر فهو من الله تعالى .

* * *

الاغتصاب بين الإعلام والإعدام

تمهيد :

الجريمة مفزعة مخجلة ، فيها دلالة على خلل اجتماعى وفكرى خطير . وفظاعة الجريمة لا ينبغى أن تكون ساتراً للحقيقة ، كما لا ينبغى أن تكون فيها مثل قنابل الغاز أو الدخان يعمى للحظات ، ولا يصنع شيئاً سوى أن يعطى فرصة للهروب والتراجع .

ومعنى الاغتصاب : أخذ الشيء عنوةً وبلا وجه حق . قال تعالى فى سورة الكهف :

﴿ وكَانَ وَراءَهُم مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينةٍ غَصْباً ﴾ (الكهف : ٧٩)

وصيغة الافتعال فيها مزيد من الجهد وإعمال القسوة وبذل الحيل للوصول إلى ما ليس له بحق .

وهذه الجناية دليل على استشراء نوازع الشر ودوافعه فى النفس الإنسانية ، فإذا ما انتشرت وجيء بها جهاراً كانت دليلاً على فساد فى المجتمع وخلل فى تنظيمه وتركيبه .

وهذه الجريمة حين تظهر تكون أبلغ دعوة للإصلاح وأكبر دافع للحرص ، فإذا لم ينتبه لها المجتمع والقائمون على أموره اتسعت رقعة الانهيار رغماً عنهم

وتهاوت دعائم هذا المجتمع ، لأن السكوت حينئذ على الجريمة دليل شر وسوء نية ، وحينئذ يتحقق فينا قوله تعالى :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ القَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِم وَأَتَاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (النحل : ٢٦)

وحتى لا يخرّ علينا سقف حياتنا وحتى لا يأتينا العذاب من حيث لا نشعر يجب علينا أن نبحث عن الأسباب التى دفعت بهذه الجناية إلى العلانية ، وبعدها نتقدّم خطوة إلى محاولة تلافى هذه الأسباب .

وقد رأينا حكمة الإسلام فى علاج الأمراض الاجتماعية ، إذ نراه يعالجها بالتحكُّم فى المنبع لا بالتعرُّض للمصبّ ، لأنك إذا أردت أن تُوقف تياراً (مائيًّا أو كهربيًّا) فإنه لا يكفى أن تقف للماء عند مصبّه تمنعه أو أن ترفع المصباح الكهربى ليتوقَّف التيار ، بل لا بد أن تغلق منبع الماء ليتوقف عند المصب وينجو النبات من الغرق ، وكذلك لا بدّ أن تغلق المفتاح الكهربى لتضمن انقطاع تدفُّق التيار الكهربائى فى الأسلاك .

وهكذا فعل الإسلام عند علاجه للأمراض الاجتماعية ، ففى الخمر حرَّم إنتاجها وبيعها ثم حرَّم بعد ذلك شربها . وفى الزنا أغلق منافذه وسدَّ الذرائع إليه ، ووقف أمام دوافعه فحرَّم التبرُّج والخلاعة قبل أن يفرض العقوبة جلداً أو رجماً ، كما حرَّم الاختلاء بالأجنبية حتى لا يساعد النوازع النفسية على ما تصبو وتميل إليه . وفى مسألة الرقيق لم نجد نصًّا يحرِّم الرِّقَّ ، وإنما وجدنا نصوصاً تخلِّص الرقيق وتفكُّ رقابهم ، وقبل ذلك ضيَّق المداخل إلى الرق حتى لم يعد هناك رقيق ألبتة فى المجتمع الإسلامى .

وإنما أطلنا فى بيان ذلك لأن هذا الأمر من أخطر الأمور لصلاح المجتمع أو فساده ، ولقد فشلت مجتمعات كثيرة فشلاً ذريعاً فى معالجة مشكلة الفقر بالاستدانة والاستيراد ، وذلك لأنها عميت عن العلاج من المنبع وهو هنا الإنتاج والمزيد من العمل الفعلى لا مجرد الخطب الرنَّانة والوعود البرَّاقة التى لا تجدى شيئاً ولا ينتج عنها سوى المزيد من الكسل والاستدانة .

ولهذا فلا بد أن يكون علاج حالات الاغتصاب وما شاكله من أمراض علاجاً جذريًا من المنبع دون أى بديل آخر ، لأن هذا البديل لن يزيد على أن يكون ترقيعاً لثوب مهلهل ، والنتيجة مزيد من الانهيار والضياع .

حقيقة الاغتصاب

إن الاغتصاب عدوان على مسالم وأخذُ حقه أو ممتلكاته تحدِّياً للتشريع واستهانة بكل القيم والأعراف . ويدخل فى هذا الاغتصاب المادى والاغتصاب المعنوى .

أما الأول : فمنه التعرُّض للناس بالسلاح وسلْب أموالهم وأمتعتهم ، والهجوم على البيوت الآمنة بالسلاح وسلب ما فيها ، واختطاف الأشخاص لطلب فدية مالية أو عينية .

أما الاغتصاب المعنوى : فصوره كثيرة ، منها التحايل للفوز بمنصب يستحقه غيره ، ومنها الضغط النفسى على الشخص كى يتنازل عن حقٍّ كأن يساومه بالإبلاغ عنه فى جريمة موهومة أو يهدده بتلفيق جناية ضده ، أو يأخذه بالشبهة ويحمِّله بعدها ما لا تحتمله الأمور ، ومنها استغلال المصلحة للابتزاز كمسألة الدروس الخصوصية التى استشرت فى المدارس والجامعات ، وصارت أقرب إلى النهب منها إلى التعليم والتوجيه .

جريمة الاغتصاب النسائى

وتلك الجريمة هى هدف بحثنا الآن . والسؤال المطروح : أين نضع هذه الجريمة ؟

هل نضعها فى باب الاغتصاب المادى حيث وقع عدوان من الذئب البشرى (كما اصطلحت وسائل الإعلام على تسميته) على الضحية (وهى الفتاة التى وقع عليها الاعتداء) ؟ أم نضعها فى باب الاغتصاب المعنوى حيث المسألة ليست مسألة رجل وامرأة فى حدود الذات المادية بل هى أمر القيم والعرض والشرف

وهيبة المجتمع ، وذلك لأن التقاء رجل وامرأة فى الحرام موجود حتى فى عصر الرسالات . أم أن هذه الجريمة جمعت بين الأمرين معاً ؟

والحقيقة أن جريمة الاغتصاب داخلة من أوسع الأبواب فى باب الاغتصاب المعنوى ، والضحية فيها ليست الفتاة بل هى الجانية ، فهى تُوحى بما تُبديه من مظاهر الزينة والإثارة للشاب أن يقبل عليها . فإذا أضفنا لذلك ما يعانيه الشباب من ضوائق شتى ، وأزمات نفسية على كل صعيد ، سواء الصعيد السياسى أو الاقتصادى أو غير ذلك ، سنجد أن الفتاة تغتصب الفتى مرات ومرات قبل أن يغتصبها . وحتى لا نتعجَّل الحكم يجب أن نتناول بعض المعلومات حول حدِّ الحرابة :

ضوابط حد الحرابة

جاء الحديث عن حد الحرابة فى قوله تعالى :

﴿ إنَّما جَزَاءُ الَّذينَ يُحارِبُونَ اللهَ ورسُولَه ويَسْعَوْنَ فى الأرْضِ فَساداً أنْ يُقَتَّلُوا أوْ يُصَلَّبُوا أوْ تُقَطَّعَ أيْديهِم وأرْجُلُهم مِّنْ خِلافٍ أوْ يُنْفَوْا مِنَ الأرْضِ ذَلِكَ لهُم خِزىٌ فى الدُّنيا ولهُم فى الآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ ﴾ (المائدة : ٣٣)

وعلى ذلك فلا بدَّ لتطبيق حد الحرابة من توافر أمور ، منها : أن يكون المحارب خارجاً على التشريع محارباً لله ورسوله ، وهذا يتحقق فيمن يمثِّل الشريعة وينفِّذها كالحاكم المسلم أو القاضى المسلم ومن يساعدهما . ومنها : أن يكون المحارب ساعياً للإفساد فى الأرض **﴿ والله لا يُحبُّ الفسادَ ﴾** (البقرة : ٢٠٥) ويخرج من هؤلاء الذين تابوا وألقوا السلاح قبل القدرة عليهم كما صرَّحت الآية بذلك ، فلا يُطبَّق عليهم حدُّ الحرابة مطلقاً ، وإن كان يجوز للحاكم أن يعاقبهم بالتعزير أى يحكم عليهم بعقوبات لا تصل إلى مستوى عقوبة الحد كالسجن والجلد والتغريم ، وللحاكم أن يعفو عمَّن لا خطر له كالأتباع والأذناب ممَّن لا رأى لهم .

وبصدد تطبيق الحدود يجب أن ننبِّه إلى حقيقة وهى أن النبى ﷺ قال : « ادرءوا الحدود بالشبهات » كما ورد عنه ﷺ : « لأن تخطىء فى العفو خير من

أن تخطىء فى العقوبة » ، وذلك حتى لا تتحوَّل الحدود إلى ستار للأحقاد الشخصية وباباً للثارات والضغائن . رُوى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه جاءه رجل فى حدٍّ ، فأساء الرجل إلى عمر فعفا عنه ، ولما سُئل عن ذلك قال : خفت أن يأخذنى الشيطان بعزَّة السلطان فأنال منه اليوم (أى أبالغ فى عقوبته) ما يناله منى غداً (أى يوم القيامة) . فقد خشى عمر بن عبد العزيز أن يكون فى الحد شبهة الغضب للنفس .

وفى ضوء ما قدَّمنا نسأل : على مَنْ يُقام حد الحرابة ؟ والجواب قدمته الآية الكريمة ، وحدَّدت الأنواع وذلك قوله تعالى : ﴿ **إنَّما جَزاءُ الَّذينَ يُحارِبُونَ اللهَ ورسُولَه ويَسْعَوْنَ فى الأرْضِ فَساداً** .. ﴾ فهم الذين يتوافر فيهم شرط حرب الله ورسوله والسعى فى الأرض مفسدين .

وإذا أردنا أن نوضِّح حقيقة مَنْ يُقام عليه حد الحرابة فى حالتنا هذه فيجب علينا أن نسترشد بالآية الكريمة ، وحينئذٍ يتضح لنا بجلاءٍ أن من يُقام عليه الحد هو النساء والفتيات اللاتى أعلنَّ الحرب على شرع الله تعالى وأحكامه ، وخالفن صريح القرآن مخالفة سافرة تقرب من الاستهزاء بآيات الله تعالى .

لقد عرضت النساء أجسادهن فتنة للسائرين ، فهن اللاتى سعين فى الأرض فساداً ، وهن اللاتى حاربن الله ورسوله .

إن الفتاة المتبرجة قد اغتصبت الشباب وحملته على ارتكاب الفاحشة . ولهذا يجب أن يُؤخذ على يدها ، وتُرَدَّ بكل الوسائل إلى احترام نفسها .

وحتى لا يظن ظانٌّ أننا نقصد بالمتبرجة تلك التى تلبس الملابس القصيرة والمشقوقة فقط نقول : إن التبرج داخل فيه تلك التى تلبس الملابس الطويلة التى تضيق حتى تحدِّد معالم الجسد وتغرى بالمتابعة أكثر مما يغرى العُرى بالنظر .

من ضوابط خروج المرأة

نهى الإسلام المرأة المسلمة أن تُظهر زينتها لغير زوجها ومحارمها كما قال تعالى : ﴿ **ولَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَائِهِنَّ أو ءَابَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنائِهِنَّ**

أوْ أبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ (النور : ٣١) إلى آخر المحارم الذين ذكرتهم الآية .

ونهاها أن تتعمَّد فعل ما يلفت النظر إليها ، قال تعالى : ﴿ ولا يَضْرِبْنَ بأرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ (النور : ٣١) بل نهى عن الخضوع فى القول حتى لا يطمع الذين فى قلوبهم مرض ، فقال لأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن : ﴿ إنِ اتَّقَيْتُنَّ فلَا تَخْضَعْنَ بالقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذى فى قَلْبِه مَرَضٌ ﴾ . (الأحزاب : ٣٢)

وعند خروج المرأة للمسجد يجب أن تكون غير متبرِّجة ولا متعطِّرة ، بل يخرجن تفلات ، أى خاليات من العطر والزينة ، فإن تعطرت فى خروجها للمسجد فعليها أن تغتسل من عطرها كما تغتسل من الجنابة . وقد عرفنا من أحاديث رسول الله ﷺ أنه أيُّما امرأةٍ تعطَّرت ومرَّت على قومٍ ليجدوا ريحَها فهى زانية .

وهذا كله فى الزينة والتعطر ، رغم الاحتشام ولبس الملابس الفضفاضة التى لا تحدِّد تقاسيم البدن .

- أما الملابس القصيرة وتعرية الساقين والذراعين والعنق والشعر فهذا حرام لا محالة .
- والملابس المفتوحة من أحد الجوانب والضيقة .
- تلوين الخدود والعيون .

كل هذا وما فى حكمه حرام إذا كان لغير الزوج ، وهو داخل فى محاربة الله ورسوله ، وهو من السعى فى الأرض بالفساد .

وقد أخبر النبى ﷺ أن النساء الكاسيات العاريات من علامات الساعة ، وهؤلاء النساء ملعونات .

وإذا كانت نتيجة ما سبق أن واجب مَنْ بيده أمر الأمة ومَنْ يقوم بشئونها الضرب على أيدى هؤلاء الخارجات فإننى أنبِّه إلى أن هذا هو المفهوم الدقيق من منطلق الإسلام ونصوصه ، ولا يدخل فى الاعتبار المفاهيم التى يدين بها البعض كالمصلحة وتغيُّر الظروف وطبائع الأمور والتسامح أو التساهل إلى غير ذلك .

وعليه فإن أردنا أن نستعين بالحد لدرء هذه المفسدة ونستنجد بالإسلام فليكن الأمر من منطلق إسلامى . أما أن نستنفر الإسلام ونتخذه ستاراً للخروج على الإسلام فإن هذا يجعلنا داخلين فى زمرة الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، أو مع الذين ينتقون ما يروق لهم ويقولون ﴿ **إنْ أُوتِيتُم هَذا فَخُذُوه وإن لَم تُؤتَوْهُ فاحْذَرُوا** ﴾ (المائدة : ٤١)

كما لا يليق بنا أن نجدَّ فى المطالبة بتنفيذ حدٍّ ونسكت عن حدٍّ آخر ، فحدُّ الحرابة صرَّح به القرآن ، وحد السرقة والزنا كذلك صرح بهما القرآن ، فكيف نأخذ جانباً ونترك الآخر ؟

العلاج من المنبع لا من المصب

إن صدور قانون يضاعف العقوبة على الرجل الذى يُتهم باغتصاب فتاة أو امرأة سيكون له آثار ضارة حيث لا بد أن يتناول العقاب الرادع تلك المرأة التى أثارت الرجل ، وإلَّا فمعنى عقاب الرجل المعتدى دون المرأة المفسدة أن نترك جانب الفساد يستشرى ونكون بذلك قد اتخذنا آيات الله هزواً . ولعله من المفيد أن نذكر ما كان يسمى « بوليس الآداب » الذى كان يأخذ الشاب الذى يعاكس الفتيات يحلق له شعره ويضربه ثم يترك الفتاة تمضى لسبيلها ، وكأنما هو حماية للعُرى وتهديد لكل من يعرقل مسيرته ، ذلك أن من يتعرَّض للفتيات بالكلمات البذيئة والتلميحات العارية قد يردُّها عن العُرى ويدفعها إلى الاحتشام .. وهكذا كانت المساندة الرسمية للعرى ، علماً بأن الأمر فى الإسلام خلاف ذلك .

وجوب الحماية

بيَّن القرآن الكريم أن للمرأة الملتزمة بأصول الدين وقواعد الشريعة حق الصيانة والحماية ، فهى إن خرجت محتشمة ملتزمة فذلك علامة الإيمان ، والواجب على المجتمع المؤمن أن يوفر لها الأمان حتى لا يتعرض له أحد بسوء ، وذلك لأنها لم تبتذل نفسها ، ولم تترك عورتها نهباً للعابثين الساقطين .

إن المرأة العارية قد وهبت نفسها للجائعين وعرضت نفسها سلعة رخيصة لكل من هب ودب ، فكيف نحميها وهى لم تحم نفسها ؟ ولهذا فإن الحاكم غير مطالب بحماية العبث ، إنما الحماية لتلك التى احترمت نفسها وحفظت عورتها وأكبرت تعاليم ربها . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّها النبيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وبَناتِكَ ونِساءِ المُؤْمِنينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذلكَ أدْنَى أنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ .

(الأحزاب : ٥٩)

فهذا علامة الإيمان ، والحشمة والالتزام من سمات المؤمنة التى تستحق الحماية ، أما تلك التى لم تحم نفسها ولم تستر عورتها فلا حماية لها ، بل يجب حماية المجتمع من أخطارها .

* * *

المرأة والسقوط السياسى

هذه سطور نحاول بها أن نوضّح الحقيقة ونؤكّد على ما سبق أن بيّناه من أن المرأة ليس لها دور فى البناء الحضارى العالمى أو المحلى خارج دورها الذى حددته الطبيعة لها وبيّنه الإسلام أبلغ تبيين .

والآن نتصفّح التاريخ لنرى دور المرأة فى سقوط الدول .. وهو دور لم يسجّل منه التاريخ الكثير .. إذ أن الرواة انشغلوا بالأحداث عن بواعثها ، وبالنار عن مؤججها ، فكانت المرأة تطل من وراء الحطام والرماد لماماً .

ولقد قال رسول الله ﷺ : « ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة » وكانت المناسبة حينما ولّى الفرس ابنة كسرى مكانه . ولم يَرُق هذا الأمر فى نظر المتحررين الداعين لمأساة المساواة بين الرجل والمرأة ، فقاموا يتأوّلون الحديث وأنه قيل لمناسبة خاصة ولا يعدو مناسبته التى قيل فيها . وغاب عنهم أنه ﷺ أُوتى جوامع الكلم ، وأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى ، وأن هذه المناسبة لم تكن لتحدّد مضمون الحديث وغايته ، فليست العبرة بمناسبة الحديث بل العبرة بعموم اللفظ .

وتأبى أحداث التاريخ إلا أن تكون شاهداً على صدق الحديث الشريف وإعلاناً عن جوهر النبوة ونقائها . فعندما أوشكت الخلافة الأموية فى الأندلس على السقوط لم تسقط دفعة واحدة . لقد ولى أمر الخلافة طفل فى السابعة من عمره يُدعى « هشاماً » ولما لم يكن بإمكانه حكم البلاد فقد كانت أمه « صبح »

وصية عليه ، ولما لم تستطع صبح هذه أن تنفرد بالسلطة فقد أشركت معها فى الأمر رجلاً من الحجَّاب يُدعى المنصور بن أبى عامر . وقد حكم هو وأبناؤه باسم الأمويين . ولم يمض أكثر من أربعين سنة حتى كانت دولة العامريين قد أصبحت آخر ومضة تمثَّلت فيها دولة الخلافة الأموية فى الأندلس ، وبسقوط دولة العامريين التى قامت على غير أساس انفرط عقد الأندلس[١] .

وهكذا بدأ الانهيار بصنيع امرأة ، وصار الجنس الآدمى رخيصاً ، فالأولاد لا قيمة لهم وإنما القيمة الحقيقية لمظاهر الترف ، فصار اقتناء جهاز للتكييف أو الفيديو أهم من تربية ولد ، وصار الأولاد عبئاً على الأهل وقيوداً تحكم تصرفاتهم فلا يستطيعون الذهاب إلى المسارح والسينما ودور اللهو الأخرى ، ولم يَعُدْ هدف الزواج تكوين أسرة ورعاية ناشئة بل صار تعاوناً على تجهيز مسكن واقتناء سيارة وشراء أجهزة وحلىٍّ وجواهر .

وقد صار جيل الشباب عبئاً على الآباء لمطالبهم المتوالية وحاجاتهم المرهقة ، كما صار الآباء عبئاً على الأبناء :

- لا يسمعون لهم .
- لقلة تواجدهم بين أبنائهم فى البيت .
- لحرمان الشباب من الانتماء الأبوى والأموى حيث صار الأهل حريصين على مقابل من أجر إضافى وربح مادى محسوب أو غير محسوب حتى يتمكنوا من مسايرة الجوانب المادية التى يلهثون خلفها .
- طغت القيم المادية على كل قيمة معنوية ، فانتشر الفساد وصارت السيارات مقابر للمدمنين أو مصايد للفاسدين والفاسدات .

صارت العناية بالجسد واحتياجاته ومطالبه المادية الأمر الأهمَّ فى الحياة ، وهذا أمر لم يعد هناك حيلة لتجنُّبه ، فأُنشئت معاهد لتفصيل الثياب وإعداد الوجبات ، وصار التجميل خبرة ووضع المساحيق علماً له أصوله ، حتى صار الجسد وحشاً يفترس كل شيء . وهذا أمر لم يكن ليستفحل خطره لولا خروج المرأة على كل قيمة .

---

(١) أوراق ذابلة من حضارتنا – د . عبد الحليم عويس – ص ٢٨ وما بعدها .

وجدنا مبتدعات للتجميل الرجالى فأناقته وعطوره ومنظر شعره وشاربه ، كل ذلك صار فناً له أهله وخبراؤه .

فى الوقت الذى شاع فيه التبرُّج الخليع وأصبحت العورة المحرَّمة مباحاً للجميع انتشرت موجة منفِّرة تستنكر على الناس الحلال ، فالزوجة الثانية وباء والتفكير فيها جريمة .

وتأمَّل نهاية دولة عظيمة بدأت بعظيم من أعظم الرجال هو صلاح الدين ، وانتهت بملك عظيم كذلك هو الملك الصالح ، وكانت نهايتها على يد امرأة مملوكة من هؤلاء اللاتى يظهرن فى عصور الضعف ويساعدن على سقوط الدول إنها واحدة من هؤلاء النسوة القويات اللائى يجدن اللعب فى خفاء القصور وستورها ، متجرِّدات من كل خصائص الأنوثة الحقيقية ، مستغلات مظاهر هذه الأنوثة فى القتل والتدمير ، إنها شجرة الدر التى قتلت ابن زوجها (توران شاه) لكى تنفرد بالحكم ثم شربت من نفس الكأس حين قتلها المماليك أخذاً بثأر زوجها منها[1] .

وفى دولة المرابطين بالمغرب « كانت الخمر تُباع علناً فى الأسواق ، وكان النبيذ يُشرب دون حرج ، وكانت الخنازير تمرح فى الأسواق كالأغنام .. واستولى النساء على الأحوال وصارت كل امرأة تشتمل على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور . وكان ثمة مظهر آخر من مظاهر الفساد انتشر على عهد الخلفاء الضعاف المرابطين ، هذا المظهر هو تحجُّب الرجال حتى إن الرجل لا تبدو منه إلا عينه ، وبروز النساء وظهورهن فى الأسواق العامة سافرات واختلاطهن بالرجال »[2] .

هذه لمحات توضح الحقائق لكل ذى عينين . فالمرأة لها دور ، وتخطى دورها يعنى الدمار والانهيار . قلنا هذا فى غير هذا المكان ، ونقوله فى هذا المكان ، وسنظل نقوله لأنه الحق الذى حدده رب العزة سبحانه وتعالى فى فطرة الإنسان وفى كتابه الكريم .

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٧ .

المرأة .. والتجاوز فى العصيان

قال النبى ﷺ ما معناه : « ما تركتُ فتنةً بعدى أضرَّ على الرجال من النساء » .

وهذه المقولة قد أثبتت الأيام صدقها فيما أثبتت من صدق نبوءات أخر .. فإن المرأة تُعَدُّ أخطر على الدين من أى شيء آخر . إننى أتحدَّث عن شرائع الإسلام من صلاة وزكاة وصيام وتشريع للدنيا . وليس للمال هذه الخطورة ، فلقد حدد الإسلام تشريعات للمال حلاله وحرامه ، فعرف الحلال من الحرام ولازال الأمر فى إطاره المعروف . إذ الحرام فى المال يكون بالسرقة أو الرشوة أو الغصب ، ولا زال هذا هو الأمر لم يتطور أو لم يحدث فيه تجاوزات ، وكافة ألوان الحياة نرى الخروج عنها فى حدود لا تتجاوزها ، إلا شأن المرأة فقد تجاوز الأمر فيها كل حد .

- فالمرأة عورة .. كل جسدها عورة ما عدا الوجه والكفين .
- ومصافحة المرأة حرام .
- والخلوة بالأجنبى حرام .
- وعصيان الزوج حرام .
- والزنا حرام .

فهل توقَّف الأمر عند هذا الحد ؟ كلا بل تجاوزه إلى أبعد من ذلكَ عشرات بل مئات المرات . ففي الوقت الذى يشتدُّ فيه الخلاف حول أمر الوجه والكفين هل يجوز كشفهما أم لا بد من النقاب والقفاز نجد المرأة فى تطلُّعها للحضارة المادية قد قفزت بعيداً بعيداً فكشفت عن أعلا الساقين والذراعين ومنتصف الصدر أو الظهر أو منتصفهما معاً ، ولبست ما كشف عن كل جوانب عورتها .

وفى الوقت الذى يصرُّ فيه البعض على مناقشة مصافحة المرأة وهل هى حرام أم مكروه أم حلال نجد المرأة قد تجاوزت ذلك كثيراً كثيراً ، وتقدَّمت إلى العناق والرقصات والقبلات ، ورضى بذلك من لم يمارسه إذ صارت هذه المناظر مألوفة لروَّاد السينما ، بل ودخلت البيوت بلا استثناء عن طريق التليفزيون والفيديو وما إلى ذلك .

وفى الوقت الذى نقرأ فيه أحكام الخلوة وتحريم الخلوة بالأجنبى نرى الأمر قد تجاوز ذلك ، فقد زحفت كتائب النساء العاريات إلى كل جانب ، وامتلأت بهن مكاتب الأعمال ووسائل المواصلات ، وازدادت الاحتكاكات حتى صارت المصافحة أقرب إلى الحسنات لمن اكتفى بها .

والزنا حرام .. ونحن نجد الآن شبكات دولية للدعارة والفجور تحت إدارة المشهورات ممن يقدِّرهن مجتمع الماديات .

وعصيان الزوج حرام حتى قال النبى ﷺ لإحدى النساء حاثًّا لها على طاعته : « انظرى فإنه جنتك أو نارك » أى هو سبب دخولك الجنة أو سبب دخولك النار ، ولكننا الآن نرى المرأة اليوم قد أشهرت سلاح العصيان حتى وصل الأمر إلى قتله أحياناً .

ولا يمكن أن نتكهَّن بما يمكن أن يحدث بعد ذلك ، فلا زالت الفتنة ممتدة ولا يعلم مداها إلا الله عز وجل .

اللهم إنا نسألك العفو والعافية .

* * *

مكانة مرموقة فى إطار محدود

من أجَلّ نعم الله على الإنسان وأعظمها نعمة الإيمان والإسلام ، وهى من النعم التى امتنّ الله بها على الإنسان :

﴿ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُم أنْ هَداكُم لِلإيمانِ إنْ كُنتُم صَادِقِينَ ﴾ .

(الحجرات : ١٧)

وفى هذا المجال نرى دور المرأة واضحاً ومحدوداً فى إيجابية تفاعلها مع دورها المساعد فى حركة الحياة . وانظر مليًّا إلى اصطفاء الله تعالى لمريم ابنة عمران رضى الله عنها ، فقد كان اصطفاءً بالتطهير لتقوم بأنبل وأعظم مهمة ؛ هى مهمة الأمومة فى سياق المعجزة الإلهية فى خلق المسيح عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام . فالاصطفاء لم يتم لمريم عليها السلام نظراً لدور موهوم فى مجال لم تُخلق له ، أو فى مجال يكون غيرها أقدر على الوفاء بمتطلباته منها ، قال تعالى :

﴿ يا مَرْيَمُ إنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِسَاءِ العَالَمِينَ ﴾ .

(آل عمران : ٤٢)

فكان أن نالت شرف الاصطفاء مرتين وهو ما لم يفز به أحد من الرجال فى مثل مكانتها ، وكان هذا الاصطفاء المضاعف لمدى معرفتها بحقيقة دورها ، كما قال تعالى :

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرانَ الَّتى أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنَا فِيه مِن رُوحِنا وصَدَّقَتْ بِكلَماتِ ربِّها وكُتُبِه وكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ ﴾ (التحريم : ١٢)

فكان إحصان الفرج والعفاف والطهر هو باب الاصطفاء . وقد جاء فى ترتيب الآية سابقاً على التصديق والقنوت ، وفى ذلك ما يدحض مزاعم المتشدِّقين بالحقوق والمساواة والداعين إلى أن تنسى المرأة دورها وتخرج على حقيقة طبيعتها .

وحينما أوحى الله لأم موسى كيف تحافظ على ابنها من طغيان فرعون وجبروته استجابت لأمر الله تعالى فألقت ابنها فى صندوق بالنيل . وقد ذكر القرآن الكريم مشاعرها كأمٍّ عانت القلق والخوف على رضيعها ، وجاءتها المعونة الإلهية ، فقد ربط الله على قلبها وأمدَّها بالعون لتنتصر على ضعف الأمومة .

وهكذا نجد القرآن الكريم لم يحترم النماذج النسائية إلا من منطلق إحساسها بدورها الطبيعى من أمومة وزوجية أو أنوثة .

فقد رأينا احترام الأمومة فيما أشرنا إليه من قصة مريم عليها السلام وأم موسى عليه السلام ، ثم فى التشريعات العالية لقضية الحضانة والإرضاع وغير ذلك .

أما من ناحية الزوجية فقد سمع الله قول خَوْلَةَ بنت حكيم رضى الله عنها والتى تجادل فى زوجها وجاء ذكرها فى أول سورة المجادلة :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتى تُجادِلُكَ فى زَوْجِها وتَشْتَكى إلى اللهِ واللهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (المجادلة : ١)

كما ذُكِرت زوجة فرعون مثلاً للمرأة الصالحة ، تقوم بدورها كزوجة ولكنها تتبرَّأ من طغيان زوجها ، كما قال تعالى :

﴿ وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إذْ قَالَتْ ربِّ ابْنِ لى عِنْدَكَ بَيْتاً فى الجَنَّةِ ونَجِّنى مِنْ فِرْعَوْنَ وعَمَلِه ونَجِّنى مِنَ القَوْمِ الظَّالِمينَ ﴾ .

(التحريم : ١١)

أما من ناحية أنوثة المرأة فآيات الآداب والنهى عن التبرُّج وإظهار الزينة – مجرد الزينة لا العورة – كثيرة كما فى آيات سورة النور وغيرها من الآيات ، كقوله تعالى :

﴿ وقُل لّلمُؤْمناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أبْصَارِهنَّ ويَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ولَا يُبْدِينَ زِيَنَتهُنَّ .. ﴾ (النور : ٣١)

وفيما عدا ذلك فالمرأة فرد من مجتمع وسند لقومها ، ليس لها دور مستقلٌ إلا فى عصور الضعف والانهيار كما رأينا[١] .

ومن عجيب الأمر أن القرآن فى ذكره نماذج المرأة تحدَّث عنها تابعة لجمَاعة المؤمنين . وتأمل نهايات الآيات الكريمة التى تناولت النماذج المبهرة للمرأة ، ففى آية ذكر مريم عليها السلام :

﴿ وصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ ربِّها وكُتُبِه وكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ ﴾ (التحريم : ١٢)

وفى ذكر أم موسى عليها السلام قالت الآيات :

﴿ وأَصْبَحَ فُؤَادُ أمِّ مُوسَى فَارِغاً إنْ كَادَتْ لَتُبْدِى بِه لَوْلا أن رَّبَطْنا علَى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنينَ ﴾ (القصص : ١٠)

فمريم من القانتين ولم تقل الآية القانتات ، وأم موسى من المؤمنين ولم تقل الآية من المؤمنات ، تنبيهاً على أصل الفطرة ولا مجال لمتحذلق أو مدَّع يحاول أن يتملَّص من الحقيقة الناصعة . وقد بيَّنا وأشرنا إلى الآيات ، وليس للمؤمن ولا للمؤمنة اختيار مع آيات الله .

* * *

(١) راجع ما كتبناه تحت عنوان : المرأة والسقوط السياسى ص ٨٦ .

من إصدارات دار البشير للمرأة

* المرأة المسلمة .. الشيخ أبو بكر جابر الجزائرى
* المرأة ومكانتها فى الإسلام .. المستشار محمد حسن الحفناوى
* الفتاوى النسائية .. الشيخ محمد بن صالح العثيمين
* فتاوى عائشة فى الدين والحياة .. إبراهيم محمد الجمل
* مشكلات فى طريق المرأة المسلمة .. إبراهيم محمد الجمل
* آداب الزفاف والزواج .. الشيخ أنور على عاشور
* كبائر النساء .. إبراهيم محمد الجمل
* زاد المرأة المسلمة .. إبراهيم محمد الجمل
* إلى كل أخت متحجبة ، نحو التزام واعٍ رشيد .. عبد الرحيم أقوام
* أسئلة طفلك الحرجة .. أبو المجد أحمد حرك
* خذى بيد طفلك إلى الله .. حامد عبد الخالق حامد

دار البشير ـ القاهرة

١٤٥ طريق المعادى الزراعى ت : ٣١٨٧٣٦٨

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع : ٩١٣٢ / ٩٣

I. S. B. N
977 - 262 - 030 - 8

دار البشير ـ القاهرة
للطباعة والنشر والتوزيع
١٤٥ طريق المعادى الزراعى ص . ب ١٦٩ المعادى . ت : ٣١٨٧٣٦٨

هذا الكتاب

* ما زالت قضية المرأة تفرض نفسها على مسرح الحياة ، وما زال الاختلاف حاداً بين من يهدفون للمحافظة على كرامة المرأة وعدم امتهانها لكى تتفرغ لتربية النشء ، وبين الذين يزعمون تحريرها فأخرجوها عن فطرتها وعن مهمتها التى خلقها الله لها .
* إن الواقع يثبت والدراسات تؤكد أن معظم أمراض المجتمع اليوم تعود لخروج المرأة للعمل دون ضرورة مُلحّة وترْك أولادها فريسة للانحلال الخلقى والفكرى وإدمان المخدرات والوقوع فى براثن الرذيلة مما يعرفه كل متابع .
* إن الغربيين يحسدوننا على تماسك نظامنا الأسرى حتى الآن الذى يقوم فيه الرجل بالأعباء المالية وتقوم المرأة بواجب التربية والتنشئة .
* نحن نريدها امرأة فاضلة عالمة مربية تربى أجيالنا القادمة للحفاظ على ذاتية هذه الأمة ، نحن نريدها عنصر بناء للحضارة الإسلامية لا عنصر هدم .

دار البشير

دار البشير - القاهرة
للطباعة والنشر والتوزيع
١٤٥ طريق المعادى الزراعى ص . ب ١٦٩ المعادى . ت : ٣١٨٧٣٦٨